بين الحب والحرب

رواية

محمد عزب

بين الحب والحرب

محمد عزب

رقم الايداع / ١٩٥٠٢ – ٢٠١٣ ط١

الترقيم الدولى / ٩ - ٤٢ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

غلاف / محمد عبد العزيز

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة

د/ سالم ابراهيم سالم

أ / رشا زقيرق

أ/ محمود السيد

المراسلات : ٦٠ش سكينة بنت الحسين

كفر عبده - الإسكندرية

ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧

: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧

Dar.lilitte@gmail.com

lilettepublishing@gmail.com

www.lilithpublishinghouse.com

At Alisandre he was when it was won

Geoffrey Chaucer,[1] "Canterbury Tales", General Prologue, Line 51

لكل شيء وقت: «وقت للولادة ووقت للموت، وقت للغرس ووقت للقلع، وقت للبناء ووقت للهدم، وقت للضحك ووقت للبكاء، وقت للرقص ووقت للندوم، وقت للعناق ووقت للفراق، وقت للكسب ووقت للخسارة، وقت للسكوت ووقت للكلام.»[2]

وقت لليقظة ووقت للندوم، وقت للكسر ووقت للجبر، وقت للفرح ووقت للترح، وقت للأمل ووقت لليأس، وقت للخصوبة ووقت للجدب، وقت للهزل ووقت للجد، وقت للدعة ووقت للكدح، وقت للحب ووقت للحرب.

وبين الحب والحرب حرف واحد ورائية من العذاب والألم وأجرية من الأنين والشجن والبكاء على الأطلال، وملحمة الحب والحرب قديمة قدم الزمن وسرمدية لا تنتهي إلا بتوقفه؛ الحب يؤجج المشاعر، والحرب تكوي الجلود، الحب يرقق القلوب، والحرب تطحن العظام، الحب يدغدغ الأحاسيس، والحرب تفطر الأكباد، الحب يُخرج أجمل ما في الإنسان؛ والحرب تُخرج أسوأ ما فيه.

وقصتنا تبدأ في الإسكندرية، «كدست مغانيها، ولطفت معانيها.»[3] «الطيبة.»[4] سيدة المدن وربة الأحجية والأساطير والحكايات. «عروس المتوسط» كما يقولون، لكنها أيضا عاهرته التي يأتيها الغزاة من كل ناحية وفي كل موضع، احتار الناس في وصفها وعجزت الكتب عن تصنيفها، أغنية وأمنية وأمسية... جنية وشتوية ومرثية... هذه هي الإسكندرية.

الفصل الأول

صبيحة يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرون من شهر المحرم لعام ٧٦٧هـ، السابع من أكتوبر لعام ١٣٦٥م، ولا جديد في الإسكندرية. ارتفعت شمس الخريف مرسلة أشعتها الذهبية لتوقظ السحب التي احتبست الدموع في مآقيها، انتشرت رائحة اليود وانكسرت الأمواج على شواطئ تتمدد وتنكمش بفعل السنين. خرجت الشباك متخمة بأسماك فضية راحت ترقص وتتلوى من الألم، انطلق البشر في الأزقة والحواري والطرقات. أناس متباينون في أرديتهم ومشاربهم وأصولهم ومعتقداتهم، لكل منهم قصته، ولكل منهم سره ووجعه وبكائيته.

نعم، لا جديد اليوم في الإسكندرية اللهم إلا تثبيت بعض الرايات البيضاء هنا وهناك تحسبا لعودة الحجاج الوشيكة. أشرف حاكم الثغر بالإنابة، «جنغرة»،[٥] والذي سماه السكندريون «مسخرة» لأسباب سنأتي على ذكرها، على تعليق البيارق بنفسه؛ وكيف لا يفعل ذلك ومتولي الإسكندرية، «صلاح الدين ابن عرام» ذهب إلى الحج هذا العام؟ لا بأس ببعض التزلف والمداهنة ومسح الجوخ، ربما شفعت له هذه الأعلام عن بعض الهفوات التي وقعت أثناء غياب «ابن عرام».

منذ أيام قليلة وتحديدا في العاشر من المحرم وقعت مشادة بين بعض نفر من المتشيعين وجلتهم من «بني الكنز» النازحين من جنوب

أسوان وبين جماعة من أهل السنة حول المفاضلة بين «الفاطميين» و«الأيوبيين». حدث هذا أثناء الاحتفال بليلة «عاشوراء» عند مقام سيدي «أحمد المتيم»[٦] في حديقة «الخندق»،[٧] اندلعت أيضا مشاحنات أخرى بين «البنادقة»، سكان «البندقية» أو «فينيسيا»، من ناحية والقبط من ناحية أخرى وبين اليهود والأقباط وبين أهل الذمة والمسلمين وبين المماليك والعرب.

استدعى «جنغرة» إلى دار الإمارة «أندريا فينير»،[٨] قنصل البندقية وقاضي الإسكندرية، الشيخ «فخر الدين بن الربعي»[٩] وكبير اليهود، «الناجد»، وبطريرك الكرازة المرقصية، الأنبا «يؤانس العاشر»[١٠] وممثل الأشراف، «ابن الخمسين»[١١] و«الهواري»، كبير عرب «هوارة» الذين يسكنون شمال إقليم «البحيرة» على مشارف الإسكندرية. رحب بهم «جنغرة» ثم استهل الحديث:

- لا أريد أن أستبقيك كثيرا أيها القنصل. طلبت مقابلتي؟
- نعم يا سيدي. اسمح لي أن أقدم هذه الرسالة من حاكم البندقية[١٢] لعظمة السلطان «الأشرف شعبان».[١٣]
- ما فحوى هذه الرسالة أيها القنصل؟
- نسجل اعتراضنا مجددا وللمرة الثالثة عما حدث لسفننا في رشيد. أنت تعلم يا أمير أن ست سفن تجارية لنا طوحها البحر

وضلت الميناء فرست هناك. اجتمع عليهم الأهالي بالسهام فغرق ثمانون رجلا من خيرة بحارتنا. نطلب أيضا القبض على المدعو «أحمد الجداوي» وكنيته «الباشق» لأنه حث الناس على حرق الجثث.

- سأبعث بالرسالة مع البريد السلطاني، لكن هناك أمر مهم أردت أن أناقشك فيه.
- تحت أمرك يا سيدي؟
- لديكم هنا في الإسكندرية فندق خاص بكم به مخزن للبضائع وكل ما لذ وطاب، وعلى حد علمي أنكم تحتسون به الخمور أيضا، أليس كذلك؟
- نعم يا أمير.
- ولديكم كنيس أيضا بداخله؟
- تماما.
- جيد. تعلم أنه توجد أوامر بعدم تجول الإفرنج في الطرقات أثناء شعائر صلاة الجمعة.
- أجل.
- فلماذا خرقتم التعليمات الجمعة الفائتة؟
- اضُطررنا لإرسال بضع نفر لسفننا.
- أرأيت؟ هذا ما يُسبب الكوارث. خرق التعليمات. يبدو أن

هذا ما حدث أيضا في رشيد. أرجو ألا يتكرر ذلك يا جناب القنصل؛ ويمكنك الانصراف الآن.

- أمسك القنصل بقبعته. أشار بها للحاضرين محييا. رد المتواجدون برفع كفوفهم عدا بطريرك الكرازة المرقصية؛ بدا منزعجا لوجود قنصل البندقية، عاد «جنغرة» فأمسك بتلابيب الحديث قائلا:

- يقولون إن «أرض الكنانة» مرجل كبير اسمه «أم الدنيا»؛ وعليه فإن لأي فرد سواء في الشرق أو الغرب حق في هذه الأم الرؤوم شريطة أن يكون بارا بها. هذه البلاد مصَّرت الملايين ومزجتهم بنيلها وقمحها وشعيرها؛ «المحروسة» ليست ملكا لأحد، وليست حكرا على أحد، أعطى سبحانه الأمان لمن يدخلها فقال «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين».[14]

تجرأ «الناجد» على المقاطعة قائلا:

- سمعت أن هذه الآية أُختص بها اليهود، أليس كذلك أيها القاضي؟

- إنها تنسحب على الآخرين يا حبر اليهود، لكن الأمن فيها مشروط بمشيئة الله.

عاد الأمير فأمسك بأطراف الحديث مستأنفا:

- يقولون أيضا إن الإسكندرية ضاربة في القدم؛[15] وإنها أكبر

من أن يجزئها أحد أو يتغول عليها فصيل، أليس كذلك أيها البطريرك؟

- أتفق معك بشدة أيها الأمير؛ أنا نفسي «سرياني» قدمت برية مصر طلبا للعبادة والتبتل، لا أجد ما أدلل عليه من سماحة القبط غير أنهم قبلوا ببابا سرياني عليهم؛ ورغم ذلك فأنا أشعر في قرارة نفسي أني أكثر مصرية من أناس كثيرين.

- رائع... ما رأيك في هذا الكلام أيها الحَبر؟

قد نختلف على أي شيء إلا حبنا لهذه البلاد. سمعت أمس أن «اللحياني»،[16] وزير الدولة «الحفصية» بتونس حين فر إلى الإسكندرية أسكنه السلطان الملك الناصر[17] دارا أنجب فيها غلامين سمى أحدهما «مصري» والآخر «إسكندراني».

- جميل. إذن ما حقيقة واقعة الحجارة؟

- سيدي الأمير إذا كنت تقصد ما حدث بيننا وبين المسلمين فأنت تعلم أنهم قذفوا معبدنا، «إلياهو جنابي»،[18] بالطوب.

- هذا من عمل الصبية يا «ناجد».

- هناك من سلط الصبية يا سيدي، أحسبك تعلم ذلك؟ لقد انتهينا وشيكا من بناء المعبد من مالنا الخاص ليخدم ثلاثة آلاف يهودي بالثغر.

- ثلاثة آلاف!

- من طائفة «الربانيين» فقط يا سيدي، أما «القرائين» فلا ننشغل بأمرهم.
- أنت تبالغ في الأرقام يا «ناجد».
- وهل لديك رقم آخر يا سيدي؟
- بضع مئات ليس إلا.
- لا بأس إذا كان ذلك يرضيك أيها الأمير.
- ولماذا لا تلتزمون بلبس العِمَّات الصفراء؟
- تحلل الناس من ذلك يا سيدي، مضى وقت طويل، زهاء ثلاثة وسبعين سنة، على فرض هذه الألوان.

- هذا ليس عذرا؛ قلنا ونكرر العِمَّات الصفراء لليهود والزرقاء للقبط ودواب أهل الذمة هي الحمير ليس إلا.

- أنت تعلم أيها الأمير أن هذه الإجراءات لم تنجح ولن تنجح في مصر؛ تذكر الحاكم.
- أي حاكم؟!
- الحاكم بأمر الله.
- ذاك رجل خفيف العقل، متقلب المزاج وضعيف الرأي، أما نحن المماليك...

لم يمهل ممثل الأشراف، «ابن الخمسين» متولي الثغر، الأمير «جنغرة» مزيدا من الوقت ليُجَرِّح في الفاطميين ويتباهى ويفتخر بدولة اللقطاء

على حد ظن الأول فقاطعه قائلا:

- المعذرة أيها الأمير، نحن أيضا نريد عِمَّات تميزنا عن غيرنا.
- تقصد عن غيركم من المسلمين
- ليس تماما، ولكن الأشراف لهم مكانة في قلوب المسلمين جميعا، أحسابهم وأنسابهم معروفة ومحفوظة.

أحس «جنغرة» بهذه الكلمات تطعنه في مقتل؛ نعم فالأشراف وغيرهم من البطون العربية يقتفون آباءهم للجد العشرين أو يزيد، أما المماليك مثله لا يعرفون حتى آباءهم، أراد «جنغرة» أن يرد الصفعة «لابن الخمسين» فرد معلقا:

- لقد قبضنا على أحدكم، شريف حسيني، يختلس من ديوان «الخُمس».[19] أليس كذلك أيها القاضي؟
- بلى يا سيدي، وقطعنا يده في ساحة مسجد «أبي الأشهب»[20] فلا عصمة لأحد.
- زادت السرقات عن الحد أيها القاضي؛ أنتم مقصرون في الوعظ.
- بل التقصير في العسس والدوريات أيها الأمير.

امتعض «جنغرة» من رد القاضي فأدار دفة الحديث ثانية إلى ممثل الأشراف قائلا:

- على أي حال اكتب إلى كبيركم في «القاهرة» ودعه يعرض الأمر على مولانا السلطان، أي لون تقترح إذن لعِمَّاتكم؟
- الأخضر يا سيدي.[٢١]
- اسمع يا ابن الخمسين... قل لأتباعك إن الفاطميين ولُّوا بأنسابهم الزائفة؛ وإننا لن نسمح باللطميات في الإسكندرية.
- هل أقول لهم أيضا إن دولة «صلاح الدين» قد ولت؟
- الأيوبيون أساتذتنا؛ لا يمكن أن ننكر ذلك، لكن تلك أمة قد خلت. هل وصلت الرسالة يا بن... يا بن... يا بن رسول الله.
- يفعل الله ما يشاء.
- ممم، حسن. حضرة البابا. ألن تكفوا عن العراك مع البنادقة؟
- لا. لن نكف.
- تقولها أمامي بهذه الجرأة؟!
- أنت سألتني وأنا أجبتك بالصدق؛ ولو وجهت إليّ السؤال في حضرة القنصل ما اختلفت إجابتي.
- وما نهاية هذا العداء؟
- نهايته أن يعيدوا لنا رفات القديس مرقص الرسول.
- أنت تتحدث عن واقعة جرت منذ سبعة قرون أو يزيد.[٢٢] ولو ظل الأمر لنهاية العالم لن يتغير بالنسبة لنا. إنهم لصوص. سرقوا الجسد المبارك ولم يخجلوا أن يخفوه في حوض لتمليح

الخنازير في سفينتهم، ثم أقلعوا به إلى البندقية فأقاموا له كاتدرائية كبيرة.

- ما الفرق إذن؟ المهم أن جسده في مكان آمن.
- سيدي، أنت تعلم أن الروم الكاثوليك لا يحبون الأرثوذكس الشرقيين منذ مجمع «خلقدونية».[٢٣] إنهم ينعتونا بالهرطقة ولا يتورعون عن شن حملات صليبية علينا أيضا كما فعلوا في جزيرة «كريت»! وهكذا فنحن مُضطهدون في الداخل والخارج.
- لا تهول أيها البطريرك؟
- إنما أرصد واقع الحال يا أمير؛ أنت زججت بقبطيين في الحبس منذ يومين لأنك سمعتهما يتحدثان «القبطية »!
- حذرنا من قبل من استخدام لغات الكنائس والمعابد في الشوارع.
- لكنها كانت لغة مصر قاطبة.
- أنت قلتها بفمك «كانت». حسبنا التخريب الذي أحدثه لسانكم في العربية.
- هل هذا يختلف عن الكلمات التركية التي جلبتموها معكم؟ انزل إلى الميناء أيها الأمير وستسمع خلطا عجيبا من اللغات.
- لأغراض التجارة وحسب أيها البابا.
- القبطية جزء من تراثنا يا أمير.

- أنا لا أفهم كثيرا عن تراثكم وأشيائكم. ما أفهمه وما أريدك أن تقوله لأتباعك أن البنادقة من أهم التجار الذين يفدون إلى الإسكندرية التي غدت جسر التجارة وشريانها بين الشرق والغرب، وأن المتاجرة تعود بالخير على الناس: السماسرة والتراجمة والنسّاخ والمغربلين والحمالين، لا نريد أن نخسر ريع التجارة من أجل رفات لا تقدم ولا تؤخر.
- سيدي...
- انتهى الأمر أيها البطريرك. لم لا تكتب بمبادرة شخصية لصاحب البندقية؟ أرأيت كيف يستغلون أي واقعة ليرفعوا اعتراضاتهم ويسجلوا مواقفهم؟
- وهل تعتقد أيها الأمير بجدوى هذه الشكليات. العاقل من عرف زمانه يا سيدي. ثم أين الدولة؟ ألسنا رعاياكم وفي ذمتكم كما تقولون؟ أنت تؤثر البنادقة علينا يا أمير.
- أنا؟... أبدا... أنا لا أحبهم؛ وأعرف أنهم يتمنون زوال المماليك؛ وأننا شوكة في حلوقهم، لكن السياسة أمر مختلف أيها الأنبا.
- وأنا أقول لك يا أمير لا بأس ببعض الشدة معهم حتى لا ينتهكون حرماتنا. أما سمعت عن أحداث عام ١٣٢٦من ميلاد يسوع المسيح؟

- كلا.
- تحرش تاجر إفرنجي جنسيا بصبي عند «باب البحر» فتصدى له مصري شهم وأخذ يكيل له الضربات بنعله، ثار التجار ووقعت اشتباكات، استطاع حاكم الإسكندرية آنذاك[٢٤] إخماد الفتنة، لكن الرسالة وصلت، أوصلها هذا المصري بِخُفه الذي أوسع به رأس الإفرنجي ضربا. «أنتم هنا للمتاجرة وحسب، وأي تجاوز سوف يُقابل بما يستحقه من حزم وعقاب.»
- حسن أيها البابا... المهم لا أريد مشاكل مع البنادقة... آه وشيء آخر... قل لأتباعك أن يمتنعوا عن القول بأن القبط رحبوا بالعرب نكاية في الروم، كما رحبوا آنفا بالإغريق نكاية في الفرس...

أخذ قاضي الثغر بطرف الحديث مضيفا:

- أو أن الإسلام انتشر على أسنة الرماح.
- لو لم يكن هذا صحيحا أيها القاضي ما كنتم وصلتم إلى الإسكندرية وما كان الأمير هنا في مصر.
- ألم تقل من قبل إن مصر بلد الجميع أيها الأسقف ودللت على ذلك بأنك من سريان الشام؟
- بلى يا أمير.
- إذن توقف عن هذا الكلام، وقل لهم أيضا أن يتوقفوا عن

القول بأن القبط الذين دخلوا في الإسلام إنما هم المُعدمين الذين لم يستطيعوا دفع الجزية.

- لكن هذا صحيح إلى حد بعيد أيها الأمير.
- يا رجل! هل «شمس الدين بن غراب»، كاتب الديوان الذي أسلم مؤخرا مُعدم لا يستطيع دفع الجزية؟!... وأنت يا شيخ «هوارة».
- أسمعك أيها الأمير.
- قلت لكم لا تدخلوا الإسكندرية بعد حلول الظلام.
- إذن فاسمح لنا أن ننتقل للعيش فيها.
- يكفينا ما بها من القبائل اليمنية: «جذام» و«لخم» وغيرهما.
- لو تعلم أيها الحاكم أن الدار التي نجلس فيها الآن أسسها عُتبة ابن أبي سفيان؟[٢٥] ولو تعلم كم ضحى العرب ليأخذ «عمرو بن العاص» هذه المدينة عنوة ما منعتنا من دخولها؟

نظر البابا إلى القاضي قائلا:

- هل سمعت أيها القاضي؟ قال الرجل «عنوة». وشهد شاهد من أهلها كما تقولون، نظر الأمير إلى البطريرك مغتاظا ثم تحول إلى شيخ هوارة قائلا:
- ماذا تريد أن تثبت أيها العربي؟!
- أن العرب، لا المستعربين هم من تحملوا ثمن الفتوحات.

- آه.. كذلك، أفصح عن مكنون صدرك؛ أنا سمعت أنك تصفنا بالأجلاب، وتنعتنا بأننا «مماليك شجرة الدر»، ليتك أيضا تعلم أن العرب بادوا يا هواري، وأن «هاجر» خرجت من هذه التربة السوداء، تذكر أنه لولا المماليك لسقطت مصر كلها في يد التتار، وأنه لولا وقفتنا في المنصورة[٢٦] لحاز الفرنسيس الديار،رحم الله قطز وبيبرس وقلاوون.
- «قطز» الذي قتله «بيبرس» و«بيبرس» الذي قتله «قلاوون». ساويت بين القاتل والمقتول يا أمير.
- حسبك... أنت تخوض في مولانا «المنصور قلاوون» جد السلطان الحالي «الأشرف شعبان».
- لا يا سيدي.
- إذن فاعلم يا أعرابي «أن الأرض يرثها عبادي الصالحون."[٢٧]
- أنا سمعت أن أحدكم ربط بين هذه الآية وبين نجم الدين أيوب. الصالح كانت كنيته!
- أنتم آخر من يتكلم عن الصلاح أو الإصلاح يا عرب الجزيرة.
- ليس لدي تعقيب أيها الأمير.
- لقد زاد السلب والنهب هذه الأيام واشتكى قناصل الفرنجة.
- وما دخلنا بهذا أيها الحاكم؟
- أنت تعرف ما أقصد أيها الشيخ «ولولا رهطك...»[٢٨] أستغفر الله العظيم... اسمعوا يمكنكم الانصراف الآن.

الفصل الثاني

خرج الجميع حانقين من دار الإمارة، استأذنوا الأمير ولم يودعوه. أدار كل منهم ظهره للآخر وانطلق إلى حال سبيله. وجد «الناجد» في انتظاره صديقه «يعقوب» الذي سأله على الفور:

- بَشِّر يا ناجد.
- ومن أين يأتي البشر أو البشارة يا يعقوب وعلى الإسكندرية هذا «الجنغرة». مدينة الإسكندر التي حكمها «بطليموس وكليوباترا» وغيرهما من زهور التيجان يحكمها هذا التافه؟!
- أصبت؛ لم يفعل شيئا منذ أربعة أشهر سوى الجلوس في دار النيابة يشاهد الألعاب النارية والنفط الملتهب وهو يُطلق في السماء ثم ينزل في مياه البحر.
- رفعت إليه شكوى من اضطهاد اليهود في الإسكندرية كما فعل «فيلون»[٢٩] أمام الإمبراطور الروماني «كاليجوا».[٣٠]
- وهل ذكرت له هذه الأسماء؟!
- لا بالطبع يا يعقوب؛ إنه رجل جاهل، أنى له أن يعرف «فيلون»، هذا اليهودي السكندري الفذ؟!
- عندك حق يا ناجد، لا تختلف رأسه كثيرا عن رأس الكرنبة.
- رأس الكرنبة أكثر فائدة.
- أنا شخصيا أحب أكل الملفوف.
- يعلم أن عدد اليهود في المدينة زاد مع نزوح «الأندلسيين»،

لكنه يكابر، ينسى أن لنا حقوقا تاريخية في هذه البلاد لأننا عشنا فيها مئات السنين نزرع ونبني ونتاجر ونؤلف ونترجم ونبتكر.

- هون عليك يا ناجد، إلى أين أنت ذاهب الآن؟
- إلى سوق الزَّجَّاجين لأبتاع ألواحا جديدا للمعبد بدلا من تلك التي حطمها الصبية.

أما شيخ «هوارة» فقد اتجه جنوبا وهو يتمتم: «هذا الأمير الأخرق. صدق من سماهم بالمماليك، ليس لهم عهد ولا وعد، رحم الله الشيخ العز ابن عبد السلام[٣] حين باعهم في المزاد العلني بسوق العبيد.»

انطلق البابا للخلوة في إحدى أديرة وادي النطرون وقد بدا عليه التذمر فراح ينفث عن غضبه لتابعه الذي كان ينتظره على باب الإمارة.

- هيا بنا يا «جريس».
- مالي أراك مغموم الوجه قداستك؟!
- طمس الحقائق، هذا ما يجيده المسلمون.
- هون عليك يا أبانا.
- ألست أحد ضحاياهم؟
- بلى، أخبرت قداستك أني من منطقة «عيذاب» في النوبة، خربها السلطان بيبرس منذ قرابة قرن من الزمان.
- بيبرس هذا لم يدع أحدا وشأنه من قبط وصليبين ونوبيين

وباطنية[٣٢] وعربان.

- نزح جدي إلى الشمال وانتهى بنا الحال هنا.
- أرأيت؟ كفرونا وأهانونا وشردونا وأثقلوا ظهورنا بالجزية وألبسونا وأركبونا على أمزجتهم، بنينا لهم السفن فأغرقونا. أدرنا لهم الدواوين فنهبونا، جاءوا للارتباع[٣٣] في وجه بحري فاحتلوه، أحرقوا مكتبة الإسكندرية ثم قالوا ضربها زلزال. استرقوا الناس ثم قالوا إن الإسلام جفف منابع الرق، حولوا كنائسنا إلى مساجد: كنيسة القديس «أثناسيوس» بالمعاريج[٣٤] تحولت لجامع «الجيوش»، وكنيسة القديس «ثيوناس» أصبحت جزءا من مسجد «الألف عمود»؛[٣٥] من أين لهم بألف عمود؟! وبعد ذلك يقولون: «انظروا ما جلبنا للإسكندرية من حضارة!!» ناسين أو متناسين أن الإغريق والبطالمة هم من حملوا المدنية والحضارة لجنوب بحر الروم.
- ليس لنا أسنان.
- على العكس، ثار القبط طويلا وتمسكوا بعقيدتهم ولغتهم، لكن الريح كانت أعتى منهم، ليست القضية قضية الأسنان؛ القضية قضية اللسان.
- الأمل معقود على قداستك.
- الأمل يولد من رحم الألم، ليس مهما أن تكون بطريركا أو أسقفا

أو قسيسا أو حتى شماسا؛ المهم أن تكون الحواري الثالث عشر للمسيح تماما مثل الرجل الذي ظهر في إقليم الغربية.

- تقصد «رويس»؟[٣٦]
- أريد كل منا أن يكون هذا «الرويس».

نادى القاضي على ممثل الأشراف الذي وقف يتحدث مع مرافقه، الشيخ «محمد الحسيني» خارج دار الإمارة:

- يا ابن الخمسين... الانتساب لبيت النبي ليس تكأة للتعالي على الناس.
- ومن قال لك إننا نفعل ذلك أيها القاضي؟
- رحم الله أزمنة كنتم تتوارون فيها في الكهوف.
- كل هذا لأني طلبت عِمَّات تميزنا عن غيرنا؟ هل هذا هو التعالي في نظرك؟!
- لدي قصص كثيرة، لكن الأهم منها أن تدققوا أنسابكم.
- ماذا تعني؟!
- أعني أنه ليس كل من لفظه المغرب إلى الإسكندرية حاجا أو هاربا من اضطراب الأحوال هو من الأشراف. ما أسهل أن تصطنع لنفسك جدا اسمه «حسن» أو «علي» أو «حسين» لتفوز بنوع من الحصانة.

انتفضت عروق «محمد الحسيني» فقال للقاضي بشيء من الحدة:

- تنعت المجاهدين بهذه الفرية؟
- الذود عن الثغور مسئولية الحكام يا حسيني وليست مسئولية سيدي فلان وسيدي علان، كفانا أسياد.
- تخوض في الصوفيين الزاهدين: «الطرطوشي» و«المرسي» و...؟
- أنا لا أخوض في أحد.
- تَذَكَّرْ كيف أفحم «ابن عطاء الله السكندري»[٣٧] شيخ الإسلام، «ابن تيمية» في مناظرتهما حول الأولياء أيها القاضي.
- أنا أعلم بديننا منكما، الأولياء على العين والرأس، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لكن اختلاق الأنساب والكذب على الرسول والتنطع في الأربطة والدجل واستغفال الناس أمر لا يقره الدين.
- ليس هذا بيت القصيد أيها القاضي، أنا أعلم أنك حانق على كل من يتَّبع المذهب المالكي في مصر والمغرب ذلك لأنهم ناصروا العلويين وعارضوا العباسيين.
- هذا غير صحيح.
- ألتمس لك العذر، فأنت تتبوأ منصبا رسميا؛ ومنذ أن أحضر بيبرس الخلافة العباسية إلى القاهرة[٣٨] بعد أن داسها المغول

بالخيول في بغداد ليخلق لحكمه شريعة زائفة أصبحت البيعة في رقابكم.

تسلم «ابن الخمسين» دفة الحوار فزاد الكيل للقاضي قائلا:

- أنت مسكين أيها القاضي، رأيك ليس من لبك.
- يمكنني أن أسجنك على هذا الكلام.
- أنت مخطئ يا ابن الربعي؛ أنا من أسجنك.
- لن أخسر ديني وأنا على أعتاب الآخرة.[٣٩] أنتم خربتم عقول الناس وأيقظتم الفتنة ومهدتم للبدعة.
- لا يعجبني كلامك أيها القاضي، وسننصرف اعتراضا عليه.
- أنتما وشأنكما.

توجه القاضي إلى السوق التجاري للبلدة فمر على حانوت الشيخ «عبد الله الدماميني».[٤٠] ما إن رآه «الدماميني» حتى قفز من مقعده للسلام عليه:

- تفضل أيها القاضي الفاضل، قدح ينسون مُحَلًّى.
- شكرا لك يا دماميني، يا بن الأكابر. أنا في طريقي إلى «المرجانيين» حيث مدرسة جدك لإلقاء درس الظهيرة.
- حفظك الله يا مولانا. هل أعيرك بغلتي.

- لا. شكرا لك. وأنت يا «نويري»[٤]. هل انتهيت من نسخ المصحف الذي أعطيته لك؟
- أعمل فيه قدر المستطاع أيها القاضي.
- أم أن عملك في نسخ العقود في دكان الدماميني يأخذ جل وقتك؟
- لا يا سيدي.

انطلق القاضي لحال سبيله مع قدوم تاجر «بندقي» بصحبة ترجمانه المصري الذي وجه كلامه لصاحب الحانوت قائلا:

- يا شيخ دماميني... الخواجة يريد إرجاء كتابة العقد.
- لكننا اتفقنا منذ أسبوع والبهارات التي طلبها في المخزن، أليس كذلك يا نويري؟
- بلى يا شيخ وإنما جئت لأنسخ العقد، يبدو أنني سأترك هذه المهنة قريبا، لكن لماذا يريد هذا البندقي إرجاء كتابة العقد؟ أليس هذا غريبا يا شيخ دماميني؟! إن البنادقة يتلهفون على البهار!
- فعلا، وجه له هذا السؤال يا عجمي؟

لكن قبل أن يلتفت عجمي الترجمان للتاجر الإفرنجي وضع الأخير أجرة الترجمة في كفه وبادر بالانصراف.

- درهم! لست الوحيد الذي يتبرم من وظيفته يا نويري.

ودع النويري وعجمي الشيخ دماميني الذي وقف مندهشا وسارا في اتجاه البحر يتجاذبان أطراف الحديث:

- أتفكر فعلا في ترك مهنة النسخ يا نويري؟
- نعم، أريد أن أتفرغ للتأليف.
- لو أن في هذه البلاد إنصاف لكنت دوادار السلطان وكاتبه.
- لولا كثرة أولادي لشددت الرحال إلى دمشق وجلست بين قدمي ابن كثير.[٤٢]
- أتعلم يا نويري؟... أتيت أمس من قاهرة المعز.
- حقا؟
- نعم كنت في صحبة أحد الخواجات من مدينة فيينا.
- وكيف هي أحوال القاهرة؟
- كعهدنا بها، الخليفة العباسي، «المتوكل على الله»[٤٣] لا يهش ولا ينش والأميران: وزير السلطان « يلبغا العُمَرِي»[٤٤] وقائد جيوشه «طيبغا الطويل» يتصارعان، والسلطان الأشرف شعبان ينطبق عليه قول الشاعر: «ومليك في قفص بين وصيف وبغا / يقول ما قالا له كما تقول الببغاء.»
- ما زال صغيرا في السن، أظنه لم يبلغ الحلم بعد.[٤٥] مسكين...
- يقولون إنه شديد التعلق بأمه «خوند بركة».[٤٦]

- نعم، امرأة محسنة تحب عمل الخير، وآية في الجمال.
- أجل... أجل يا عجمي، وماذا عاينت أيضا في قاهرة الأعداء؟
- لا شيء... بلى تذكرت أمرا هاما، صليت الجمعة الماضية في جامع «السلطان حسن»[٤٧]...
- سمعت أنه تحفة عصره.
- نعم... وجدت رجلا يصيح بعد الصلاة: «يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية! يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية...»!
- يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية!
- قلت له يا شيخ العالم كله ينتهي يوم جمعة.
- وبماذا أجابك؟
- قال لي: «عد إلى الثغر واثبت على البر وإياك والفر.»
- غريبة! كيف خبر أنك سكندري؟!
- لا أدري، ربما لأن عيناي زرقاوين وأنت تعرف أن سكان الثغور فيهم خلط كثير.
- صحيح يا عجمي، كيف تعلمت لغات الفرنجة؟
- حقا لا تعرف؟!
- كلا.
- ألم تسمع عن «حملة الأطفال»؟
- حملة الأطفال؟!

- منذ أكثر من قرن ونصف[48] توجه طفل اسمه «ستيفن دي كولي»[49] إلى مدينة فرنسية تُدعى «سان دينس»[50] وراح يبشر بحملة صليبية لاستعادة الأراضي المقدسة.
- حسن وبعد؟
- تجمع حوله ثلاثون ألف صبي جلتهم أطفال شوارع غير شرعيين، وساروا معه وهم يحملون الصلبان.
- ثم؟
- قال لهم «ستيفن» إن البحر سينشق ليجتازوه إلى الأماكن المقدسة.
- كما حدث مع كليم الله موسى؟
- نعم.
- وهل انشق البحر؟
- انتظروا في «مارسيليا»، لكنه لم ينشق.
- وبعد؟
- عرض عليهم اثنان من القراصنة[51] لبسا ثياب التوبة والتقوى أن يحملوهم إلى مقصدهم إرضاء للمسيح وللعذراء.
- وهل نقلوهم فعلا؟
- أجل، لكن إلى الإسكندرية حيث بِيعوا في سوق الرقيق ودخلوا الإسلام عنوة وامتهن شق كبير منهم الترجمة في الميناء.

- هل تعني أن جدك كان واحدا منهم؟
- أجل، وورثنا عنه هذه المهنة؛ ومن وقتها أخذنا لقب «العجمي».
- العجمي.
- نعم... من العجم، أرأيت كيف تجري المقادير بأمر الله؟ لولا خروج الأطفال وتآمر القراصنة ما هداني الله للإسلام.
- حكاية عجيبة!
- وما الذي في الإسكندرية لا يدعو إلى العجب؟
- كهذا التاجر البندقي.
- نعم، إن تصرفاته مريبة.
- -لا شك أن الأمر ينطوي على سر.
- لكن يا نويري ليس هذا فقط ما يقلقني على الإسكندرية.
- ماذا تعني؟
- الناس لا تتطور، عششت الخرافات في عقولهم، الجهل أخذ بألباب النساء، الأطفال لا يتعلمون شيئا مفيدا.
- تقول هذا بالرغم من وجود المدارس؟!
- نعم، لأنها لا تجدد نفسها؛ حصرت نفسها في العلوم الشرعية. بناء على الرمل، أتعلم لماذا جاء الخواجة الذي اصطحبته إلى الأزهر الشريف؟

- لم؟
- جاء ليدرس اللغة العربية، أُفتتحت بمدينته منذ ستة أشهر جامعة كبيرة.[٥٢] نحن نتأخر، وغيرنا ينطلق للأمام.

في الطريق «الكانوبي» أو«المحجة العظمى»[٥٣] قابل عجمي والنويري الشيخ «طارق الفاسي» فألقيا عليه التحية، ابتدره عجمي قائلا:

- ما الذي أنزلك من بيتك يا شيخ طارق ولم يمض على زفافك خمسة أيام؟
- لدي نعال لا بد أن أسلمها الليلة.
- أعانك الله يا طارق، لا تنسَ أن تهتم بالأكل.
- لا تقلق يا نويري؛ سأمر على «شريف» الجزار لأبتاع بعض الكوارع.
- ولا تنس أيضا حلوى «الأبلوج».[٥٤]
- أفعل يا عجمي شكرا لاهتمامكما.
- مضى طارق إلى دكان النعال بالقرب من دار الطرز.[٥٥] عرج على شريف الجزار فوجد لديه «أبي بكر عثمان الدَلاَّل». ابتدره شريف بنفس السؤال.
- طارق! كيف طاوعك قلبك فتركت عروسك؟
- العمل يا عم شريف.

- أتدري؟ حين تزوجت...
- أي مرة؟
- المرة الأخيرة.
- نعم.
- مكثت في البيت شهرا كاملا، لم أنزل إلا لصلاة الجمعة، عد يا أخي إلى بيتك ولا تكسر قلب زوجك.
- لن أتأخر عليها.
- أخذ « الدَلاَّلُ » بأطراف الحديث قائلا:
- لدي جارية حبشية رائعة لك يا طارق، تحضر مواقعة الرجل لزوجته وتقوم على خدمتهما.
- ماذا تقول يا رجل؟!
- أقول لك ما يحدث في الإسكندرية، أعرف تاجرا لا يضاجع غير بيضاء وسوداء في سرير واحد. يخلب عقله هذا التباين بين اللونين، أليس كذلك يا شريف؟
- بلى... ولهذا سُمي سريرا يا طارق من السرور؛ ولا يجلب السرور إلا النساء.
- تعلم يا طارق أني قدمت الإسكندرية في شهر ذي الحجة ومعي نيف وخمسمائة جارية بعتهنَّ كلَّهن.
- تعلم أنت يا دَلاَّلُ... قبيل قدومي الإسكندرية أرسل سلطان

بني الأحمر[٥٦] آلاف الأسيرات إلى فاس، بيعت «القشتالية»[٥٧] وما أدراك ما القشتاليات بجوار جامع «القرويين»،[٥٨] بثمن بخس، لكني لا أقتني السَرَارِيّ والإماء، فضلا على أني لا أحب السمر، ابتعها أنت يا عم شريف.

- لا يا « طارق»، لقد وصيت الدَلاَّلَ على جارية «شركسية». لم أر في حياتي من يضاهيهن فتنة وجمالا وطراوة ورقة وعذوبة.
- لا تمل من النساء يا شريف؟
- أبيع اللحم، لكني لا آكل إلا لحومهن.
- كيف ذلك يا رجل؟!
- سأخبرك لاحقا كيف تأكل لحوم النساء، إيه... أتعلمان قبل الفناء الذي وقع في البقر منذ ثلاثة سنوات،[٥٩] كان لدي مال كثير وعشرون جارية.
- عشرون جارية!
- نعم. أغشاهن جميعا.
- متعك الله بالصحة يا شريف.
- اسمع يا طارق، لنغير الموضوع، أريدك أن تصنع لي خفا فاسيا كبير الحجم، لا أجد نعلا على مقاسي.
- حسن يا عم شريف، دعني آخذ مقاس قدميك.

الفصل الثالث

جمع طارق كومة من التراب ثم خلطها بالمياه وعجنهما ببعض التبن الذي كان موجودا بجوار الجزارة، طلب من شريف أن يضع قدميه على القالبين حين يبدأ الطين في التيبس.

مر عليه «محمد بن الطفّال» وهو يغسل يديه من آثار الطين فابتدره قائلا:

- السلام عليكم يا عريس.
- وعليكم السلام يا شيخ «طفّال». إلى أين؟
- رباط «ابن سلام».[٦] لدينا اليوم حلقة ذكر.
- يا شيخ طفّال لقد أقام ابن سلام»[١٦] الرباط وجدده للجهاد وليس للذكر.
- وما الضير في ذلك يا طارق؟ نحن نجلس نذكر الله وسيوفنا بجوارنا.
- أنتم على ثغر من ثغور الإسلام، «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة.»[٢٦]
- «وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.»[٣٦] الله يذود عن دينه يا طارق، انتهت الحروب الصليبية بسقوط عكا.[٤٦]
- لكن الفرنجة حاولوا أخذ الإسكندرية مرات عديدة من قبل.[٥٦]

- ليأتوا إذن إلينا وسوف نلقنهم درسا، «دار ابن لقمان علي حالها / والقيد باق والطواشي صبيح.»[٦٦]
- هذه كانت «المنصورة» يا طفّال.
- المنصورة، دمياط، رشيد، الإسكندرية... كلها مصارع لكل من تسول له نفسه الاعتداء على المحروسة.

ودع طارق الدَلاَّلَ وشريف الجزار واصطحب ابن الطفّال في الطريق وهو يقول له:

- تعلم يا طفّال؟ وهبني أبي للمرابطة، أسماني «طارق» مستحضرا «طارق بن زياد»، رابطت في غرناطة، لكن ساءني فساد الحكام المسلمين ودسائسهم ومكائدهم وتحالفهم مع أعدائهم ضد بني جلدتهم، أين هؤلاء من «عبد الرحمن الداخل» و«المعتمد بن عباد» و«المنصور بن أبي عامر»؟! تهاوت مدن الأندلس في حروب الاسترداد[٦٧]: طليطلة وسرقسطة وإشبيلية وقرطبة...[٦٨]
- «فاسأل بلنسية ما شأن مرسية / وأين شاطبة أم أين جيان؟ / وأين قرطبة دار العلوم فكم / من عالم سما فيها له شان؟»[٦٩]
- أحسنت... تركت الأندلس إلى مسقط رأسي، فاس، ثم نويت الحج؛ العجيب أنه حتى في الحج وجدت المسلمين متناحرين!
- كيف؟!
- خلاف «آل رميثة» على إمارة مكة.

- نعم سمعت عن ذلك.
- تركت «أم القرى» قافلا، وفي طريق عودتي أغار علينا بعض العربان فسلبوا زادنا ومتاعنا وقتلوا بعض نفر منا.
- يا له من أمر مشين!
- أجل، نجوت بأعجوبة، أدركت أننا سيئون؛ نصلي ونصوم ونحج، لكننا نقتل ونسرق وننهب.
- ثم؟
- ثم قررت أن أرابط بالإسكندرية في طريق عودتي.

تقاطع طريق طارق والطفّال مع «عبد الله البنا» والريس «إبراهيم التازي». اِستأذن الطفّال الجمعَ منطلقا إلى الرباط بينما تبادل طارق الحديث مع مواطنيه:

- أهلا بابن «تازة» وابن «مكناس».
- مرحبا بك يا فاسي، أراك مللت الزواج سريعا.
- لا يا عبد الله، ولكنه العمل.
- أعانك الله يا طارق.
- قل لي يا ريس تازي؟ ما أخبار القراصنة في بحر الروم؟
- زادت القرصنة بشكل كبير يا طارق، لا ينجو منها إلا عدد قليل من السفن المجهزة بعرادات ومجانيق وخلافه.
- ولماذا لا تُجهز سفننا بهذه الوسائل؟!

- لا أدري يا طارق، انقسم الأسطول شطرين: نصف في الإسكندرية لا يبرح الميناء ونصف في بولاق التكرور أصابه الصدأ من قلة الحركة.
- لمصلحة من هذا؟!
- الأدهى والأمر من ذلك أن بحارة هذه السفن يقضون نهارهم في صيد الأسماك ويتسللون ليلا ليقضوا الليل مع نسائهم.
- معقولة! العين التي باتت تحرس في سبيل الله.
- يا أخي لقد رأيت بأم عيني جماعة من البحارة المسلمين يحملون سيوفا خشبية مطلية بالقصدير لإيهام المغيرين والقراصنة أنها حقيقية!
- ولماذا السكوت؟! لم لا تُوصل صوتك للسلطان؟!
- السلطان غير مهتم بالسفن يا طارق؛ ما يعنيه هو اللهو والاستجمام في «سرياقوس».
- هذا أمر محزن.
- نراك لاحقا يا طارق.
- صحبتكما السلامة.

انطلق التازي والبنا فشاهدا كاتب الديوان، شمس الدين بن غراب بصحبة أعرابي. كان التازي يكره ابن غراب ويرى أنه أسلم فقط ليلتحق

بالعمل في الديوان:

- لا أستريح لهذا الرجل يا عبد الله.
- السلام لله يا تازي... السلام عليكم يا ابن غراب؟
- وعليكما السلام، إلى أين يا ابنا المغرب؟
- نصلي الظهر في «مدرسة الفخر» بالقرب من «باب شرقي» حيث نزل شيخ الإسلام، «ابن تيمية».[٠٧]
- تقصد حيث حُبس يا بنا.
- لا يستطيع أحد أن يحبس ابن تيمية يا كاتب الديوان، ليس هذا وقت ابن تيمية؛ زمانه آتٍ في قادم الأيام.
- ما شاء الله، بحر من العلوم. صحبتكما السلامة.

ما إن أدار التازي والبنا ظهريهما وسارا بضع خطوات في اتجاه الشرق حتى علق ابن غراب متهكما:

- أكره المغاربة، أكره برانسهم ونعالهم وأغطيتهم المدببة.
- لم يا سيدي؟
- منذ نيف وسبعين عاما مر بمصر مغربي في طريقه للحج، شاهد القبط في زينتهم فاستكثر ذلك عليهم، وأثار الناس ضدهم. أشعل الفتنة ثم لاذ بالهرب.[١٧]
- حقا؟

- امتلأت الإسكندرية بالمغاربة، عالقين من الحج أو مطرودين من الأندلس، صارت لهم حارة باسمهم، شيء مقزز.
- انقضت لحظات استقبل بعدها ابن غراب جماعة من التجار الأوربيين انخرطوا في حديث معه لدقائق معدودة ثم ذهبوا إلى حال سبيلهم في اتجاه سفنهم الرابطة في الميناء، نظر إليه الأعرابي سائلا:
- ماذا كنت تقول لهم بهذه اللغة الغريبة يا سيدي؟
- وما شأنك بهذا؟
- لا شيء، ولكني أحسست أن وجوههم مكفهرة ووجلة.
- أنت هنا لمهمة محددة.
- نعم يا سيدي.
- هل انتهيت مما كلفتك به؟
- نعم يا سيدي. قمت بالحفر في عتمة البارحة تحت سور «باب الديوان» وأحدثت فجوة تتسع لمرور شخص في حجمي.
- حسن، هل رآك أو شعر بك أحد؟
- كلا، نهائيا؛ واريت الفتحة بالحجارة وأخفيت ناتج الحفر.
- حسن جدا، أنت تعلم أن ناظر ديوان البضائع، «ابن عذيبة» مريض، ومن ثم فأنا المسئول الأوحد هنا، خذ هذين الدينارين. سنستخدم هذه الكوة لاحقا في نقل البضائع خارج الديوان.

سأبلغك بالموعد القادم، وأبق فمك مغلقا.

- حاضر يا سيدي، ولو أني كنت أفضل السطو على دار الضرب وسك العملة.
- أنت أحمق، عد إلى بيتك، من هنا لكوم الدكة مباشرة هل فهمت يا «لخمي»؟
- أجل يا سيدي.

غادر اللخمي وهو يردد في سره «شمس الدين! من الذي أطلق عليك هذه الكنية؟! الأصح أن تُسمى كسوف شمس الدين. من هنا لكوم الدكة مباشرة... بقي أن تخبرني ماذا آكل وأشرب، يا لك من حقير!» قبل أن يعود اللخمي إلى بيته عرج على مقام «الشاطبي»[٧٢] حيث يبيع أحد العربان الحشيش خلسة، وجد هناك «ابن قراجا»،[٧٣] حارس قصر السلاح.

- مرحى، أنت هنا يا صديقي العزيز.
- وأين أذهب يا لخمي؟
- حسبتك عند «عفيفة»؟
- هذه العاهرة! طردتني أمس من بيتها قبل أن أقضي وطري منها.
- كيف؟

- كنت أضاجعها حين ارتفع الأذان.
- حسن.
- استحيت فتوقفت عن الهز.
- ثم؟
- قذفت ملابسي في وجهي وأخرجتني من البيت وهي تنعتني بالنفاق.
- اسمع يا بن قراجا، دعك من عفيفة المقززة تلك؛ إنها تعاشر عشرة رجال بين الجنس الشرجي والمهبلي دون اغتسال.
- وأين أضع حاجتي يا لخمي؟
- عرفت مطرح امرأة نظيفة تكري فرجها للوجهاء فقط مثلنا.
- حقا؟
- نعم، لكنها تشترط فقط أن تكون حليق اللحية لأنها تتأذى من شعر اللحى.
- ماذا تقول يا لخمي! تريدني أن أحلق لحيتي فتضيع هيبتي!
- أنت وشأنك، المرأة ممتلئة وبيضاء كالقشطة.
- وماذا أيضا؟
- تمنح كل زبون خمسة أقداح من البوظة.
- جميل.
- وتطل مشربيتها على عمود السواري، حين تنظر إليه وأنت

تضاجعها تشعر بأنك الفحل الأوحد على وجه البسيطة.

- حقا؟
- أجل... تشعر معها أنك تنام على قنطار من القطن، وبمناسبة القطن؛ لا تسمح لأحد بأن يقذف داخلها، بل تساعدك إحدى الصبيات في بيتها على الاستمناء باستخدام لفافة من القطن.
- ما هذي التحكمات؟!
- القرار قرارك.
- وهل تُسمي نفسها أيضا «عفيفة»؟!
- لا، هذه «شريفة»، وتتقاضى ثلاثة دنانير في الساعة.
- ماذا! ثلاثة دنانير! يمكنك النوم مع «عفيفة» بسمكتين بوري أو خمس بيضات.
- قلت لك هذه مختلفة.
- ومن أين سآتي بالمال؟
- تدبر أمرك يا بن قراجا، أنت خازن السلاح يا أخي، خنجر مرصع أو خلافه كالذي بعته منذ أسبوعين.
- اسمع... لدي سيف أنيق مكتوب عليه «هدية من صاحب قبرص للسلطان الناصر حسن.[٤٧]
- الناصر قد توفاه الله.
- أجل، والسيف ليس للقتال.

- حسن. أعرف من يبتاعه اليوم ويحمله خارج مصر.
- حقا؟
- نعم.
- اتفقنا، والآن صف لي تلك المرأة.
- قبل أن يستفيض اللخمي في وصف المرأة وليلته معها مر عليهما الشيخ «نهار» بصحبة «محمد الخياط» و«حسن البياع». رمقهما الشيخ قائلا:
- صدق صاحب المقام حين قال «يا ضيعة الأيام تمضي سبهللا!» ألم تجدا مكانا آخر تدخنان فيه الحشيش غير مقام الشاطبي الذي خط كتابا عن أضراره وتحريمه.[٧٥]
- أو فعل هذا؟!
- أنت ثانية يا بن قراجا؟! حشاشون.
- الحشاشون في جبال سوريا أيها الشيخ.
- سأُبلغ عنك ابن عرام حين يؤوب من الحج، أنت تعرف صلتي به.
- لا داعي لذلك أيها الشيخ؛ نحن لا ندخن الحشيش هنا؛ نبتاعه فقط ونشعله بالقرب من «سور العرب».[٧٦] أليس كذلك يا بن قراجا؟
- بلى يا لخمي، أو بالقرب من «سيالة المنار».[٧٧] أنا شخصيا

أحب تدخين الحشيش بينما أنظر إلى ما تبقى من الفنار العجيب.

- لا تؤذنا يا شيخ نهار؛ نعرف أن لك كرامات وبركات وتجليات، وأنك على صلة بسكان العوالم الأخرى، وأنك ترى ما لا نرى.

مضى الشيخ نهار مع صاحبيه غربا في اتجاه بستان «القباري»[٧٨] وهو يقول:

- العوض على الله في مخزن السلاح، لقد اشترى به ابن قراجا حشيشا وطيره في الهواء.
- لا بد أن تخبر ابن عرام حال رجوعه يا شيخ نهار.
- إن شاء الله يا محمد، وسأطلب منه أن يجرد مخزن السلاح.
- حسنا تفعل يا شيخ، أواثق أنت يا شيخنا من أننا سنتمكن من تحضير الجن في البستان.
- نعم، كل الثقة.
- أريد أن أتكلم مع أمي، ربما أخبرتني بمكان الدنانير الذهبية. ماتت دون أن تخبر أحدا بمكانها.
- أما أنا فأريد أن أعرف لماذا لا تنجب زوجاتي؟!
- لا تقلقا؛ البستان يعج بهم.
- كيف؟

- أخبرني نفر من «آل عطية» كانوا جيرانا للقباري أن رجلا دق باب الخرابة التي كان يسكنها ففتحت له امرأة فائقة الحسن.
- لكن القباري لم يكن متزوجا يا شيخ!
- وهذا لب الموضوع يا حسن، عندما سأل «العطية» الشيخ القباري رحمه الله عن الموضوع قال له إنها امرأة من الجن جاءت لتخدمه... أرى الشيخ «أحمد النشاء» قادما نحونا، اكتما الأمر؛ هذا الرجل ثرثار... مرحبا بشيخ القرافة.[٧٩]
- مرحبا بكم.
- إيه يا ابن النشائي أراك في عجلة.
- نعم يا شيخ نهار لقد مدوا سماطا في رباط ابن سلام وذبحوا خروفا أملحا؛ ولا أريد أن أفقد اللحم.
- اسمع يا نشائي، لن أعطلك كثيرا، لماذا لا تفتحون باب القرافة لمن يريد أن يزور الموتى إلا يوم الجمعة فقط.
- هذه هي الأوامر.
- وما علة ذلك؟!
- هناك من يسرق الأكفان، وأظن أن بعض الشباب ضُبطوا يمارسون الخبائث هناك.
- حقا؟!
- نعم.

- لعنة الله عليهم، حسن يا نشائي. نراك لاحقا، واحرص على تناول أكبر كمية من الهبر فلحم الضأن يشد العصب.

انطلق النشائي إلى رباط ابن سلام فقابل في الطريق الفقيه «عبد الله ابن أبي بكر»، قيم مسجد «القشيري»، والشيخ «جمال الدين بن النابلسي». ما إن رآه الأخير حتى صاح:

- هاهو النشائي يحكم بيننا.
- السلام عليكما، خير يا جماعة الخير.
- تباريت والنابلسي في شعر الحماسة، يزعم صانع الصابون هذا أنه أحفظ مني.
- كان بودي أن أستمع لإلقائكما وأن أحكم بينكما، لكني على موعد وفي عجلة من أمري.
- الأمر لن يستغرق وقتا طويلا يا نشائي. سأبدأ أنا أولا.
- لا سأبدأ أنا.
- حسن يا نابلسي، وأوجز.
- يقول «عنترة»: « هلا سألت الخيل يا بنة مالك؟ / إن كنت جاهلة بما لم تعلمي / يخبرك من شهد الوقيعة أنني / أغشى الوغى، وأَعِف عند المغنم.»
- دورك يا عبد الله.
- يقول «المتنبي»: «وقفت وما في الموت شك لواقف / كأنك في

جفن الردى وهو نائم / تمر بك الأبطال كلمَى هزيمة / ووجهك وضاح وثغرك باسم.»

- ماذا تقول يا نشائي.

انطلق النشائي عدوا نحو رباط ابن سلام وهو يلتفت إليهما صائحا:

- أقول «ضاع اللحم ورحل الثريد / وأنا أنتظرهما من العيد للعيد.»
- ما هذا يا رجل؟! الوزن ليس صحيحا!
- ما الذي دهاه؟!
- لا أدري.
- خف عقله.
- أظن بسبب نومه في القرافة.

هرع النشائي إلى الرباط فالتقى ابن الطقّال وآخرين. أكلوا وشربوا ثم جلسوا يذكرون محاسن سيدي «ياقوت العرش»:[٨٠]

- مولاي صل وسلم دائما أبدا / على حبيبك خير الخلق كلهم.[٨١]
- يا سادة بالقرب من رباطنا وفي مقبرة «الميناوين»[٨٢] يوجد ضريح سيدي أبي العباس المرسي وتلميذه وزوج ابنته سيدي ياقوت، الفاتحة على روحيهما وعلى سادتنا الشاذلي والبدوي وغيرهما.

- سمعت أن سيدنا ياقوت الحبشي اشتراه تاجر عبيد ولما اقتربت السفينة من الإسكندرية هاج البحر وأشرف المركب على الغرق فنذر التاجر لو نجاه الله ليهب ياقوت لأبي العباس المرسي.
- أنا سمعت أنه حين ولد في الحبشة أقام له المرسي أبو العباس عقيقة في الإسكندرية.
- بل عصيدة.
- أنا سمعت أنه تكلم مع يمامة.
- أتدرون لم سُمي بياقوت العرش؟
- لم؟
- لأنه كان يسمع آذان ملائكة العرش.
- سبحان الله!
- مدد يا سيدي ياقوت.
- أثقل النوم عيون المرابطين ومرجح خيالهم هواء البحر، قال ابن الطّفال إنه يتخيل وجود حبل مطاطي بين العقل والمعدة فكلما امتلأت المعدة ارتخى الحبل ونزل بالعقل. قال له النشائي:
- عِمَّتك الكبيرة يا ابن الطفّال هي التي تُغيب عقلك.
- هذه العمة لها فوائد جمة يا نشائي: تتوسدها وتتغطى بها؛ وهي أيضا كفن المجاهدين، ولي فيها مآرب أخرى.

- دعنا نأخذ قيلولة، لا استطيع التحرك؛ تناولت كمية كبيرة من اللحم، ومن العسير أن يهضم اللحم اللحم، لكن المرقة كانت خفيفة يا طفّال.
- المثل يقول «مرّق تفرق» يا نشائي. لا تنسَ أن عددنا كبير.

تمددوا وراحوا في سبات عميق كأهل الكهف. من يراهم يحسب أنهم لن يستيقظوا أبدا أو أن رقادهم سوف يطول.

الفصل الرابع

عاد طارق الفاسي بعد الظهيرة إلى بيته وإلى حضن زوجته، «وسيلة»، لم تكن «وسيلة» بكرا، بل ثيبا مات عنها بعلها بعد شهرين من زواجهما في «الوباء الكبير» أو «الفناء العظيم»[٣٨] الذي حلت آخر مرحلة منه في الإسكندرية عام ١٣٦٤م. أراد طارق أن يتزوج سكندرية كما فعل الإمام الشاطبي.

شجعه النويري أيضا على هذا الأمر قائلا له: «رغبت في الزواج من امرأة تعلق بها قلبي من قبيلة جهينة بالصعيد، لكن أباها قال لي: يأكلها تمساح ولا يتزوجها فلاح.، قررت ترك «نويرة»[٤٨] وسرت مع النيل حتى انعطفت إلى الثغر فتزوجت من سكندرية وطاب لي المقام في المدينة والسكن في المرأة، نعم، فالمدينة هي المرأة؛ والإسكندرية مدينة المدن وسيدة النساء.»

رغب طارق أيضا أن يجبر خاطر أرملة. رشح له الشيخ «ابن الجباب» وهو أحد تجار الإسكندرية الأثرياء «وسيلة» وأسكنهما دارا ملحقة بداره، كان زوجها الراحل يعمل لديه، لم يزد طارق عن «على بركة الله». زواج تقليدي إلى أبعد الحدود لم تتحقق فيه حتى الرؤية الشرعية.

بالنسبة لطارق لم تكن «وسيلة» أكثر من وسيلة لحفظ النفس ودفع الشهوة والتقرب إلى الله. بالنسبة لوسيلة كان طارق الستر والعوض والأمان. أعطى كلاهما للآخر ما تمناه، لكن نوعا عجيبا من الألفة والحنان نشأ بينهما في فترة قصيرة للغاية.

تناول طارق «الكوسكوس» الذي طيبته له «وسيلة». أرادت أن تقول له إن المصريات أيضا يتقنَّ عمله مثل المغربيات. قالت له في رقة متناهية:

- استبقيت قدرا من الكوسكوس لتحلي فمك به مع الزبد والسكر المطحون. هل أعده لك الآن؟
- كلا، ليس الآن يا «وسيلة»؛ فمي لا يحلو إلا من شهد شفتيك.
- تذيب روحي خجلا بكلماتك الجميلة يا طارق.
- وماذا أيضا؟
- لكنك لا تتكلم كثيرا.
- أتكلم أكثر مما تتخيلين.
- في الخارج؟
- خارج وداخل المنزل.
- مع من؟!
- أشخاص لا ترينهم يا «وسيلة».

- لا أفهم، أريدك أن تتكلم معي أنا، هل أرقص لك؟
- نعم.

ما أجمل السكندريات وما أرقهن وما أجرأهن! وما أجمل نهدي «وسيلة» وهما يطوحان تحت قميصها المغري كموج البحر أو كتوابع الزلازل. وما أروع مشهد طارق ووسيلة وهما نائمين عاريين متفسخين في حضن بعضهما بعد المعاشرة وعلى وجهيهما ابتسامة جميلة من الرضا والحمد. استيقظ طارق فوجد زوجته بجانبه عارية، تحرك وجده مرة أخرى فأعاد الكرة، ثم قاما يغتسلان معا حتى لا تفوتهما صلاة العصر.

مع حلول وقت الأصيل ارتفع صوت الناس في الخارج، ظن طارق وزوجه أنما هو لعب الصبية، ما حدث هو أن سفنا كثيرة لاحت في الأفق البعيد، ظن الناس أنها للبنادقة أو للبيازنة،[٨٥] جاءت لحمل البهار فانتشوا وفرحوا لأن التجارة تنعش جيوب الجميع؛ سرعان ما يحل الشتاء ويقل عدد السفن التي تدخل الميناء لأن البحر يكون مرتفعا في أغلب أيامه.

نزل الظلام ولفت العتمة السفن الغريبة التي تحولت إلى نقاط من الضوء وسط البحر الكبير، هبت نسائم الشمال العليلة، ونامت الإسكندرية على وسادة الحكايات بعد أمسية عادية، نزلت أشباح كل من أحبها وولد بها

واجتاز ربوعها ليقضي فيها ليلته: «طاليس وفيثاغورث وأنطونيو وهيباتيا وإقليدس وأرشميدس ودينوقراتس وأفلوطين وعمر بن عبد العزيز وابن بطوطة وابن جبير وابن اللبان والبوصيري...» وغيرهم.

مع أول ضوء ارتقى ابن غراب سطح منزله ومعه منظار مقرب كان قد أهداه له قرصان مالطي ضمن صفقة مشبوهة، اقتربت السفن وزاد عددها بشكل كبير. حملت جلتها راية «الأسد الأحمر» لصاحب قبرص»، الملك «بطرس الأول» أو «بيير لوزينيان».[٨٦]

هبط «ابن غراب الدرج بسرعة وانهمك في جمع ما خف حمله وغلا ثمنه، واستعد للحظة الانطلاق في المساء بصحبة اثنين من حراسه إلى منزل ريفي كان قد ابتاعه في البحيرة، ولم يفت ابن غراب أن يربط سعف النخيل على مشربية داره كما اتفق مع القبارصة حتى تسلم من كسرها عنوة أو نهب محتوياتها، ومن باب التمويه خرج ابن غراب يتفقد الديوان ويُري نفسه للأمير ولطائفة من الناس حتى يدرأ الشك عن مؤامرته.

استيقظت الإسكندرية من نومها الثقيل الطويل على مشهد الأسطول المتحرك في البحر المفتوح في مواجهة فم الميناء الغربي المخصص لسفن المسلمين، بدا جليا - حتى للسذج - أنه جاء للغزو والإغارة، لا للبيع

والتجارة؛ لو أن هدفهم المتاجرة لقصدوا «الميناء الشرقي» أو «ميناء الكفار» كما يُسمى! حتى شكل السفن كان غريبا وتنوعت بين «أغربة وشينيات وطرائد وقراقر وحراريق وبطسات».[٨٧]

سرعان ما وصل الخبر للأمير جنغرة الذي كان يغطُّ في النوم، فأرسل بدوره إلى القناصل الأوربيين مستعلما عن ماهية السفن. طبقا للتعليمات لا ينزل أوروبي إلى بر الإسكندرية دون تسجيل بياناته طرفهم، كل حسب جنسيته. جاءه الخبر بأن أغلب التجار والقناصل قد رحلوا البارحة فسارع ملقيا القبض على من تبقى من الفرنجة في المدينة والذين لم يتجاوز عددهم الخمسين.

بعث جنغرة أيضا رسولا إلى القاهرة بالخبر، كما أرسل بعض قواده ليمروا على الطوابي والتحصينات والأربطة، حدثت حالة من الاستنفار في المدينة، لكن الحياة لم تتوقف بها: الصلوات تقام في المساجد، والباعة الجائلون يذرعون الطرقات ذهابا وجيئة، والسقاءون ينادون على المياه.

تجمع الناس في حي «الزريبة» غربا أمام مخزن السلاح، لكن ابن قراجا كان غائبا، أسرف أمس في تعاطي الحشيش ومضاجعة «شريفة». أرسلوا عربجيا ليحضره على كارة فجاء به مسطولا مترنحا وقد حلق لحيته.

- هلم يا بن قراجا، أخرج لنا السلاح.
- ماذا دهاكم يا قوم؟!
- ألا تعلم أن الفرنجة يتأهبون للإغارة على الإسكندرية؟
- الفرنجة؟! من منهم؟
- نظنهم القبارصة.

توجه السكندريون الذين قرروا الدفاع عن المدينة بعد استلامهم الرماح والسهام والسيوف إلى «مُصلى الأعياد» بجزيرة المنار، وهناك انتشر بائعو الحلوى غير عابئين أو مكترثين بما يجري، بينما وقف القاضي ابن الربعي يخطب في الناس ويحثهم على قتال المعتدين ورد كيدهم في نحورهم. كان مما قال: «إن الإسكندرية أفضل الثغور إلى الله وأنه حارب فيها عبادة بن الصامت وأبي الدرداء وغيرهم من صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام.» بعد ذلك دعا القاضي دعاء الثغور: «اللهم حصن ثغور المسلمين بعزتك وأيد حماتها بقوتك، اللهم كثر عدَّتهم واشحذ أسلحتهم واحرس حوزتهم وامنع حومتهم وألف جمعهم ودبر أمرهم.» ثم ختم خطبته بالآية الكريمة «إن رحمة الله قريب من المحسنين.»[٨٨]

وزع السكندريون أنفسهم على «باب البحر» و»باب الديوان». اندفع المد فطمس بعض الأشكال الرملية التي تركها الصبية هناك، قذفت

الأمواج بعض أسماك الوقار الميتة على الشاطئ، احتار الناس في سبب نفوق هذه الأسماك أو انتحارها؛ سرعان ما سرت إشاعة بأن هذه الأسماك مسمومة، وأن الفرنجة هم من ألقوا بها.

عقب الزوال أرسل الملك «بيير» سفينة واحدة إلى قلب الميناء الغربي لجس النبض ومعرفة مدى قوة الدفاعات، ترك المسلمون السفينة تلج في الميناء وتقترب، عندما أصبحت داخل المدى المؤثر لسهامهم أمطروها بالنبال من كل اتجاه فعادت أدراجها وقد أصيب بعض أفرادها.

حين رأى السكندريون السهام تطير في الهواء أدركوا أن الحرب واقعة لا محالة؛ ومن ثم فقد انبرى المُرجفون في المدينة في جمع أغراضهم وتجهيز دوابهم للخروج من المدينة. لحق بعض القبط ببطريرك الإسكندرية في وادي النطرون، انطلق شق من اليهود إلى حارتهم الشهيرة في القاهرة، حاول طارق إقناع «وسيلة» بالخروج مع الصحبة الآمنة جنوبا نحو دمنهور أو شرقا باتجاه رشيد، لكنها أبت قائلة له:

- لن أتزحزح من هنا بدونك.
- إن واجبي يا «وسيلة» أن أصد عن الثغر، ما جئت الإسكندرية إلا لهذا الغرض، أنت تعرفين ذلك.

- حسن، سأنتظرك في البيت وأصنع لك الكوسكوس، لا تتأخر عليّ يا طارق، عد سالما، أنا بحاجة إليك.

قبل طارق زوجته واحتضنها وهو يقول لها:

- هل قلت لك إني أحبك؟
- لا لم أسمعها منك حتى اللحظة، لكني أحسها في حركاتك وسكناتك.
- إذن فاعلمي أني...

وضعت «وسيلة» يدها فوق فمه قائلة:

- لا أريد أن أسمعها الآن، عد إليّ يا طارق، عد كي تقولها لي.
- الوداع يا «وسيلة»، لديك مخزون من الطعام والشراب والشموع، لا تفتحي الباب لأحد، يمكنك الاختباء بهذه السندرة إذا شعرت بحركة غير عادية.
- قبلها طارق مرة ومرات، ثم فتح الباب ووسيلة تقبض على كفه حتى اللحظة الأخيرة، خرج طارق ومعه سيفه وخنجره فقابل في الطريق النويري يركب كارة ومعه أهل بيته متجها صوب باب رشيد:
- إلى أين يا نويري؟
- إلى الصعيد يا طارق، أنت تعلم أني جاوزت الكهولة، وأعول

أسرة كبيرة.

- صحبتك السلامة.
- سأعود يا طارق يوما ما، نحن مثل السمك لا نستطيع العيش بعيدا عن الإسكندرية. لم لا تأتي معنا؟
- ليس لدي عذر يا نويري.
- وزوجتك؟
- أقسمت أن لا تغادر الثغر.
- «يا بني اركب معنا.»[٨٩]
- أستودعك الله.

سار طارق مُشوشا، فوجد «ابن الخمسين» في كارة أخرى، همَّ بسؤاله:

- وأنت إلى أين يا ابن الخمسين؟!
- أفرُّ بديني.
- تفرُّ من قدر الله إلى قدر الله؟
- ليست هذه معركتنا يا طارق.
- ما هذا الكلام؟! ألم يثبت الحسين؟!
- بلى، أعطني كربلاء وسوف أعود.
- أيامنا كلها كربلاء.
- لا يا طارق هذا ما جناه علينا «المعز أيبك» ومماليكه، أستودعك الله.

- مع السلامة.

جلس المرابطون على امتداد الأسوار ينظرون إلى السفن الراسية في البحر ويحسبون عددها طبقا للأنوار الصادرة منها، اختلفوا في العدد فمن قال سبعين ومن قال مائة ومن قال مائة وعشرين، كانت السفن ترفع رايات متفاوتة ومتباينة في الألوان والأحجام والأشكال، لكنها جميعا كانت موسومة بالصليب.

سمعوا صوت ارتطام شديد؛ تبين أن مجموعة من أفراخ السمان المهاجر قد اصطدمت بسور باب البحر من شدة الإعياء والإجهاد، رأى البعض أنها وجبة مجانية حتى باب الدار، بينما رأى البعض الآخر أنه «السلوى» الذي ينزله الله على المؤمنين.[٩] استبشر المرابطون؛ أحسوا أن السمان يمثل الصليبين وأنهم مجهدين ومرهقين وسيقعون في قبضة المسلمين.

أسند طارق رأسه إلى السور متعجبا من هذا التفكير وقد انتابه القلق على «وسيلة»، ألقى عجمي عليه التحية فلم ينتبه له:

- طارق... طارق!
- عجمي أهلا بك.
- أين أنت؟!

- أنا في الإسكندرية حيث أردت حين خرجت من فاس منذ عامين.
- نادم أنت؟
- على الإطلاق، بل أفكر في الرجل الذي قابلته أنت عند مسجد « السلطان حسن».
- صاحب نبؤة، «يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية»؟
- نعم، أظن أن ما حدث هو من سبيل الصدفة، كذب المنجمون ولو صدقوا ولو صدفوا، أليس كذلك يا عجمي؟
- تخدع نفسك يا طارق. ألا ترى بؤس العدة والعتاد من حولك؟! هذا ما كنت أحدث به النويري من ساعات، ألم تسقط قبرص تلك في قبضة المسلمين من قبل؟![19]
- بلى، و«معاوية» على الشام، كان هذا في زمن الصحابة. اشترك في غزوها «أبو ذر الغفاري» و»أبو الدرداء» و»عبادة بن الصامت» وزوجته «أم حرام».
- أتدري يا طارق لم فشل المسلمون في فتحها ثانية لأربع مرات متتالية؟![29]
- تزعزع إيمانهم.
- وفرغت عقولهم.
- صدقت يا عجمي، استمع لهذه الأصوات.

- تلك طبول الحرب.
- بل قلوب المرابطين تدق من الوجل والرهبة، يعاهدون الله لو أنجاهم إلى البر...[٣٩]
- لكننا على البر!
- أنت واهم يا عجمي؛ إنما نحن في دوامات البحر.

راح المرابطون يقرؤون سورة «الكهف» ويناجون الله في سرهم. أدركوا تماما أنهم على حافة كارثة؛ وأنهم على معصية، وأنهم يعبدون الله على حرف، لذا تضرعوا إلى الله أن يصرف عنهم هذا البلاء ويمهلهم فرصة ليغيروا ما بأنفسهم. وهكذا حال الإنسان يبحث عن أي ميناء في العاصفة، لكنه لا يهتم بالثقوب التي تملأ سفينته. هكذا الإنسان يعاهد الله لئن أنجاه إلى البر، لكنه يُضمر في قرارة نفسه العودة لسيرته الأولى حين يضع قدمه على اليابسة؛ هكذا الإنسان يتوب ثم يذنب، يقسم ثم يحنث ويغزل ثم ينقض!

الفصل الخامس

حين أرخى الليل ستائره أرسل الملك «بيير» اثنين من جواسيسه في قارب أسود اللون حطَّ خلسة على الطرف الشرقي للمدينة. أصر مستشاره لشئون الحملة، «بيرسفال دي كلون»[٤٩] الذهاب معهما، قال له الملك:

- أنت تعرض نفسك للخطر يا «بيرسفال».
- مولاي أنت تعلم أنه لدي معرفة مسبقة بالإسكندرية.
- قلت لي إنك أمضيت في الأسر بها فترة ليست قصيرة، أليس كذلك؟
- بلى يا مولاي.
- السجن والأسر... يا لهما من تجربة قاسية.
- أجل يا مولاي، قاسية ومفيدة؛ مر «بولس الرسول» بهذه التجربة، جدك العظيم «جي لوزنيان»[٥٩] سُجن في دمشق، وأُسِر «ريتشارد قلب الأسد»[٦٩] أثناء عودته من الشرق، حتى «يوليوس قيصر» وقع في الأسر.
- نعم قيصر أُسر بالقرب من مدينتنا العظيمة «فاماجوستا»، أشعر أن هناك شيئا يربطني بهذا الرجل.
- عظمته يا سيدي.
- أو ربما نهايته، أنا نفسي أمضيت فترة في السجن.
- حقا؟
- نعم، سافرت وأخي «جون» إلى أوروبا دون أن نخبر

والدنا الملك «هيو»[٧٩] فأرسل من أعادنا وحبسنا في قلعة «كيرينا».[٨٩] على أي حال أريدكم أن تأخذوا حذركم.

تنكر القبارصة في ثياب المسلمين فلم يشك أحد في أمرهم، وقفوا على أوضاع المدينة وحالة «السكندريين» وحصونهم، رصدوا حالة من التواكل والاسترخاء بين السكان، لفت انتباههم أيضا أن المرابطين لا يرتدون دروعا أو خوذات.

انطلق «بيرسفال» بعد ذلك إلى دار «ابن غراب»، طرق الباب ثلاث مرات كما اتفق الأخير مع تجار الفرنجة ظهيرة الأربعاء وهم يهمُّون بمغادرة الإسكندرية، كان هؤلاء التجار قد وصلهم خبر تواجد الأسطول الصليبي في عرض البحر فسارعوا بمغادرة الثغر، التقوا الملك «بيير» وقيادات الحملة على مشارف الإسكندرية وأحاطوهم بأوضاع المدينة وبطريقة الاتصال بكاتب الديوان.

فتح «ابن غراب» الباب وأدخل الوفد خلسة، نظر إلى «بيرسفال» قائلا:

- كدت لا أعرفك أيها الفارس؛ تغيرت كثيرا عن الفترة التي كنت فيها نزيلا لدينا!
- تقصد أسيرا لديكم، هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم أيها الفارس، تم حفر الكوة في سور باب الديوان.
- الملك «بيير» يريد أن يقتحم المدينة من باب البحر.
- لا أظن أن هذا سهلا؛ ورغم ذلك فأنا أحبذ أيضا الهجوم على باب البحر أولا حتى نلفت الأنظار بعيدا عن الديوان.
- وكيف ترى تعزيزات المدينة؟
- يمكنكم أخذها في ساعة؛ هذا لو عجلتم بالاقتحام. أنا لا أهون ولا أهول، استمع إليّ جيدا أيها النبيل: أرسل متولي الإسكندرية من يعلم السلطان بقدومكم، سرعان ما يتحرك جيش المماليك نحو الشمال.
- نعرف ذلك، لكن المدد سيتأخر لان النيل مرتفع.
- انحسر النهر، لكن الأراضي الواطئة ما زالت غارقة.
- صحيح، لذا نعتقد أن جيش المماليك ربما اضطر للالتفاف حول الدلتا من ناحية الغرب.
- هذا ما سيحدث على الأرجح، على أي حال أيها النبيل ما سيؤخر المماليك ليس النيل، بل أزمة الثقة التي يمرون بها.
- كيف؟!
- وزير السلطان يتوجس خيفة من قائد الجيش والأخير حتما سيظن أن الوزير نصب له فخا في شمال مصر.
- جيد جدا، هذا يصُبُّ في مصلحتنا.

- أجل أيها الفارس، عندما تدخلون الإسكندرية أرسلوا من يدمر «قنطرة الخليج»[٩٩] الأمر الذي سيُعطل المماليك.
- حسن جدا، إليك الذهب الذي وعدناك به، وتسلل خارج المدينة بحذر، سنبدأ هجومنا باكر.
- وقت صلاة الجمعة؟
- لا لن ننتظر كل هذا الوقت، سنبدأ في التحرك مع أول ضوء.
- آه يا سيدي لو أزحتم عنا هذا الكابوس المسمى بالعرب والمسلمين.
- ألست واحدا منهم الآن يا ابن غراب؟
- أنت أيضا تقول هذا الكلام أيها النبيل؟!
- حسن، لا بأس، لقد قدمت خدمة جليلة لخدام الصليب.
- قلبي معكم يا سيدي، وأتمنى أن أراكم قريبا في الدلتا والقاهرة والصعيد.
- سيحدث، أعدك بذلك.
- عاد «بيرسفال» بعد أن نجحت مهمة التجسس، صعد إلى سطح سفينة القيادة ومعه فتاة مصرية جميلة مكتملة الأنوثة، نظر إليه الملك ثم قال في اندهاش:
- مرحى، مرحى... ها قد عدت سالما يا «كولوني».
- الشكر للرب يا مولاي، جئت لك بهدية من الإسكندرية.

- كيف عثرت عليها.
- كنا على وشك ركوب القارب حين وجدتها تسير بحذاء الشاطئ فكمناها وجئنا بها، اسمح لي يا مولاي أن أوصلها لغرفتك ثم أعود.
- حين عاد «بيرسفال» كان الملك «بيير» بصحبة مستشاره الشخصي، «فيليب دي ميزيير»[١٠٠] والموفد البابوي للحملة «البطريرك بيتر توماس»[١٠١]، وقائد القوات القبرصية المارشال «جين دي مورفو»[٢٠١] و«أدميرال قبرص» «جون دي موستري».[٣٠١] ابتسم له الملك «بيير» قائلا:
- والآن يا «كولوني»... أخبرني عن مغامرتك.
- ألم أقل لك يا مولاي إن الإسكندرية هي المقصد السليم للحملة؟
- بلى وكذلك نصحني «إدوارد الثالث»[٤٠١] ملك إنجلترا، ماذا رأيت فيها؟
- دفاعات مهلهلة، استبد القلق بالسكان؛ بعضهم بدأ في النزوح إلى الجنوب، الأعلام البيضاء ترفرف على مباني المدينة.
- تعني أنهم استسلموا؟
- لا يا مولاي؛ إنها رايات رفعوها لاستقبال حجاجهم العائدين من مكة، لكن ألا تتفق معي أنها فأل طيب؟

- بلى... بلى... وعملاؤنا في المدينة ماذا قالوا لك؟
- كلمة السر يا مولاي هي باب الديوان، لكن يجب أن نُنهك الدفاعات على باب البحر أولا، نوهم السكندريين بأن اتجاه المجهود الرئيسي هو باب البحر ثم نقتحم المدينة عبر كوة اشتريناها بذهبنا في باب الديوان، دعنا يا مولاي نُبقي موضوع الكوة سرا حتى آخر لحظة بحيث إذا تدفقنا منها إلى المدينة لم نواجه مقاومة شديدة.
- تقرير رائع يا «بيرسفال».
- ما رأيك يا مارشال «مورفو»؟

لم يكن «مورفو» مرتاحا لحديث مستشار الملك لشئون الحملة، وبدت عليه علامات الامتعاض:

- أرى أن مستشار جلالتك قد رسم الخطة، وانتهى الأمر.
- وما الضير في ذلك؟!
- مولاي لا تنسَ جلالتك أن حملتنا تضم مقاتلين من كل صوب وحدب، وأن العقائد القتالية تتفاوت من مكان لآخر، من الضروري أن نجعلهم جميعا ينضوون تحت لوائنا نحن القبارصة، أنا أطالب بصلاحياتي كقائد عام للجيوش القبرصية والصليبية؟

- وأنا؟
- مولاي... جلالتك القائد الأعلى للحملة.
- أنا مندهش من كلامك يا «مورفو»، كل هذا لأننا اعترضنا على خطتك القاضية بالنزول أقصى غرب الإسكندرية؟
- مولاي إنما أردت أن أتلافى ما واجهه لويس التاسع حين غاص في وحل الدلتا، وأن أتجنب كذلك دفاعات الإسكندرية بمباغتتها من الغرب، ستثبت الأيام جلالتك أن هذا هو الطريق الصحيح لدخول مصر، أما بالنسبة لموضوع القيادة فدعني يا مولاي أضرب لك مثالا ستفهمه كرجل عسكري.
- تفضل.
- الأدميرال، «جون دي موستري» قاد سفننا إلى الإسكندرية، مهمته تنتهي بمجرد نزولنا إلى الشاطئ، الأدميرال هو القائد العام للحملة طالما بقينا في السفينة، بمجرد أن نضع أقدامنا على اليابسة صرت أنا قائد الحملة.
- ما هذا التخريف، اسمع يا «مورفو» أنا القائد الأوحد للحملة... في البحر والبر، لا أريدك أن تكرر هذا الكلام ثانية على مسامعي أو مسامع أي فرد آخر.
- مولاي هذا ليس تخريفا، بل كلام عسكري دقيق، لا تنسَ جلالتك ما لعائلتي من تاريخ عسكري في الشرق؛ وأني

«كونت» إمارة «الرها».

- أول ما سقط من الولايات الصليبية في يد السراسنة.[٥٠١] أليس كذلك يا كونت إمارة الرها بالوراثة؟ لا تنسَ أيضا يا «مورفو» أني ملك «أورشليم».
- باعتبار ما كان يا مولاي.
- أجل، لكني هنا وغدا أستعيد مجد آبائي.

أشاح الملك بوجهه عن «مورفو»، نظر إلى «بيرسفال» قائلا:

- المعذرة، لقد أهملتك طويلا يا «بيرسفال» في حديث عقيم، والآن اجلس أيها «الكولوني» الشجاع، قد عدت في الوقت المناسب قبل بدء الاجتماع.

بدأ حاجب الملك،[٦٠١] في النداء على قادة وكبار رجالات الحملة كل باسمه ووظيفته أو منصبه حسب توقيت وصول كل منهم:

- الأدميرال «كارلو زينو»[٧٠١] من البندقية.
- مرحبا بصديقنا العزيز «كارلو».
- مرحبا يا جلالة الملك.
- أرجو أن تكون هواجسك حول الحملة قد تبددت، بصراحة لم يعجبني اعتراض البنادقة وقت أعلنا أن وجهتنا هي الإسكندرية عقب خروجنا من «رودس».
- ما كان يجب أن تُخفي عنا ذلك يا مولاي.

- لم يعلم أحد بمقصدنا سوى نفر قليل من خاصتي، السرية يا عزيزي الأدميرال مطلوبة.
- أحسست أن الحملة كلها تعرف الوجهة إلا البنادقة، أنت لا تثق بنا يا مولاي؛ هناك من أوعز لك بأننا سنُبلِغ المماليك.
- أبدا، على الإطلاق، على أي حال لقد عاد «بيرسفال» لتوه من المدينة ويقول إن دفاعاتها مهترئة.
- هواجسنا يا مولاي ليست حول الحملة، بل تجارة البهار، لا تنسَ جلالتك أني تاجر أيضا، وأننا ساهمنا بثماني عشرة سفينة تُستخدم في التجارة بصفة أساسية.
- التوابل ليست أهم من مدينة المسيح أيها الأدميرال.
- وما دخل الإسكندرية بالمسيح جلالتك؟! إنه حتى لم يطأها حين دخل مصر.
- أنت مخطئ أيها الأدميرال، الإسكندرية المفتاح الغربي لأورشليم، إنها أغنى المدن على بحر الروم، إذا سقطت فقدَ المماليك المال والسطوة، نريد أن ينتقل ثقل التجارة ومركزها إلى مدننا: فاماجوستا والبندقية وجنوة... نريد القيام بعمل استباقي يردع المماليك عن غزونا ويمنع العثمانيين من الالتفات إلى جنوب شرق بحر الروم.
- «مراد الأول» مشغول الآن في بلغاريا وصربيا.

- على أي حال، المنتصر دائما هو من يضع قدمه على الأرض أولا؛ الهجوم خير وسيلة للدفاع كما يقولون، أما بالنسبة لموضوع البهارات فإنه أحرى بنا أن نأكل خبزا مقددا ولا يدنس الأرض المقدسة هؤلاء «السراسنة».[٨٠١] أليس كذلك يا «توماس»؟
- أجل يا مولاي، قال يسوع المسيح: « هذا هو جسدي، خذوا فكلوا.»[٩٠١] لم يكن المسيح يأكل بالتوابل، قليل من الملح يكفي. وملح المسيح هو أتباعه الطائعون الذين يحملون صلبانهم ويتبعونه بحثا عن الخلاص، أخبرنا بذلك حين قال: «أنتم ملح الأرض.»[١١١]
- صدقت.

قالها الملك والأدميرال في نفس واحد، عاد الحاجب ينادي على القادمين:

- الأدميرال «فيرلينو دي إيرساكا»،[١١١] قائد مجموعة فرسان رودس.[٢١١]
- مرحبا أيها الفارس.
- مرحبا بك أيها الملك.
- أُعَول على فرسان رودس كثيرا في معركتنا القادمة.
- نحن لها يا مولاي.
- إخلاصكم محل تقدير وتاريخكم في أورشليم معروف للجميع.

تعرف يا «مزيير»... سمعت أنه حين اتهم ملك فرنسا، «فيليب الرابع»،[٣١] فرسان المعبد منذ نصف قرن مضى[٤١] بما ليس فيهم من مثلية وعبادة الشيطان وأعدم كبيرهم... أظن...

- «جاك سدي موليي».[٥١]
- نعم... بالضبط، يقال إن هذا الرجل اختصم البابا والملك أمام المسيح وفي أقل من سبعة شهور كان كلاهما قد مات، إيماني بفرسان رودس ليس له حدود، عندما طلبت من قائدكم[٦١] أن تنطلق الحملة من «رودس» رحب الرجل دون إبداء أية ملاحظات؟ نعم... دون إبداء أية ملاحظات، سمعت هذا أيها المارشال «مورفو»؟
- أجل.

قالها «مورفو» وهو يجز على أسنانه من الغيظ، عاد الملك يقول:

- هل لديك أية مطالب يا أدميرال «فيرلينو»؟
- لا مولاي. فقط أؤكد على إخلاصنا لقضيتنا وجلالتك. إذا نظرت إلى رودس على الخريطة يا مولاي لوجدتها تأخذ شكل رأس حربة موجهة إلى السراسنة. فرسان رودس يا مولاي هم من سيشقون بهذه الحربة دولة المماليك.
- جميل... جميل جدا... أنا سمعت مقولة تقول «إذا كان لديك

عشرة رجال من رودس فلديك عشرة سفن.»

- أجل يا مولاي. هذا صحيح إلى حد بعيد.
- لذا كانت سفنكم الستة عشر في طليعة من وصل هنا فلم تتشتت مع من تعثر بسبب الرياح العاتية.
- فعلا جلالتك.
- لم يكن البحر رحيما بالحملة. اضطررت إلى تأجيل الغزو حتى تصل السفن كلها.
- لا تقلق يا مولاي، سندخل الإسكندرية وسنصل إلى القاهرة و»هليوبوليس».
- ولماذا هليوبوليس؟!
- يُقال في رودس يا مولاي أن أحد أبناء الإله «هيلو»[٧١١] تزوج من أمنا «رود»[٨١١] ثم ذهب إلى مصر وأقام هذه المدينة.
- حقا؟ من أجل هذه الجسارة قررت أن أسند إليكم مهمة حرق سفن السراسنة في الميناء الغربي.
- اطمئن يا مولاي سأقوم بهذا الأمر بنفسي.
- أريد أيضا أن أوكل لمجموعة منكم قيادة الموجة الأولى من الإنزال البحري.

قالها الملك «بيير» وهو ينظر إلى «مورفو» متماديا في إغاظته.

- سمعا وطاعة يا مولاي. اقترح أن يتولى هذه المهمة الإنجليز من

فرسان رودس، وأرشح لقيادتها «نيكولاس سابرهام».[119] لدى الإنجليز حماسا منقطع النظير؛ ولهم ثأر طويل مع السراسنة.

- صحيح. سمعت هذا يا «ميزيير»؟
- الإنجليز من أكثر من يمقت السراسنة يا مولاي. قابلت في لندن حين كنت جلالتك تزور إنجلترا في سعيك لحشد الدعم للحملة فارسا إنجليزيا اسمه «إدوارد إستير»؛[120] شاب عجيب؛ قمة في البطولة والحماس والمشاعر الملتهبة تجاه نصرة الصليب. يذكرني بفرسان الملك آرثر والدائرة المستديرة.
- أي منهم؟
- «جلاهاد».
- ذاك الذي أفنى عمره في البحث عن الكأس المقدس.
- أجل... ترك «إستير» ضياعه وأملاكه وكل شيء وراءه ثم اصطحب زوجته، أظن اسمها «لوسي»[121] فقدما قبرص. أرادت الفتاة أن تركب السفن معنا، لكننا رفضنا. تعلم جلالتك أننا أخذنا قرارا بعد اصطحاب النساء.
- أجل... غدا تعج سفننا بنساء السراسنة، لكن ماذا صار من أمر الفتاة؟
- أظن أنه أودعها أحد الأديرة في «فاماجوستا» ثم لحق بالحملة.
- ولماذا فعل ذلك ؟!

- حتى يطمئن أنها في مأمن. بعض الأديرة تتقاضى... لنقل...
- أنهى الموفد البابوي جملة صديقه «مزيير» قائلا:
- تبرعات مقابل هذه الاستضافة.

شرد «بيير» لبعض الوقت ثم أفاق على كلمات «كارلو زينو»:

- الكثير من الفرسان يفعلون ذلك يا سيدي بدلا من أن يقيدوا عقيلاتهم بحزام العفة.
- وأين هذا الشاب يا «مزيير»؟
- في سفينة الفرسان المتاخمة لنا يا مولاي، لكن يجب أيضا أن نقر بأن بعض الفرسان الإنجليز رفضوا الاشتراك في الحملة لأسباب...

تدخل «بيرسفال» قائلا:

- تقصد الحرب مع الفرنسيين؟[٣٢١] صديقي العزيز «فيليب»، دعنا نبحث عن ما يجمعنا لا ما يفرقنا.
- ليس هذا فقط يا «بيرسفال». الفارس «هنري سنكلير»[٣٢١] مثلا رفض الاشتراك لأنه على حد قوله يبحث عن المسيح في أرض جديدة وراء الأطلسي. يبحث عن عالم جديد، عالم طاهر ونقي وغير ملوث.

- ضحك الملك ضحكة طويلة ثم نظر إلى الموفد البابوي قائلا:
- ما رأيك في هذا الكلام يا توماس؟ أرى أن تكتب إلى البابا «أوربان الخامس»[٤٢١] لينتقل إلى العالم الجديد.
- مولاي... البابا لا يستطيع الانتقال من أفينيون[٥٢١] حيث يقيم في فرنسا إلى روما، فهل يستطيع أن يركب الأطلنطي ويلج في بحر الظلمات؟!
- صحيح يا توماس، ما الذي جعل البابا «كليمينت الخامس»[٦٢١] ينقل البابوية من روما إلى أفينيون في مطلع القرن؟!
- بسبب الحروب الدينية التي اندلعت آنذاك يا مولاي.

قاطع «كارلو زينو» حديث «توماس» قائلا:

- أنا سمعت أنه انتقل إلى أفينيون ليكون قريبا من عشيقته الفرنسية.
- لا يصح أن تقول ذلك على بابا من باباوات الكنيسة الكاثوليكية أيها الأدميرال.
- يا جناب الموفد البابوي. هذه هي الحقيقة.
- على أي حال يا مولاي قداسة البابا الحالي «أوربان الخامس» مستبشر بأنه سيعيد البابوية إلى مقرها في روما بعد هذه الحملة؛[٧٢١] كما أنه مستبشر بإرهاصاتها فاسمه يستدعى للذاكرة

البابا «أوربان الثاني»[٨٢١] أول من بشر بالحملات الصليبية؛ واسمك يا مولاي يذكرنا «ببطرس الناسك»[٩٢١] الذي أشعل حماس المسيحيين أثناء الحملة الصليبية الأولى حين هداه إيمانه ليجد الحربة التي طُعن بها مخلصنا يسوع المسيح وهو على الصليب. حملتنا هذه يا مولاي ستعيد مجد أجدادنا. سيكتب التاريخ فصلا جديدا يتصدره اسمك المبجل. سيتغنى الشعراء بهذه الملحمة.[٠٣١]

- شكرا لك يا توماس.

تدفق الحاضرون فلم يتح للملك التحدث معهم كل على حده. كان ممن انضم إلى الجمع بعض أقاربه بالإضافة إلى الفارس «جوشيه دي شاتيون» والفارس «جوليم مارتل» وممثل الفرسان «التيوتان» في «ألمانيا»، «فريدريك زوليرين»[١٣١] ودوق «بوربون»، «لويس الثاني»،[٢٣١] وهو رجل مصاب بلوثة أو ربما صرع، لذا يلازمه كظله دوما طبيبه الخاص «جين دي جراندفيل».[٣٣١]

بدأ الاجتماع بكلمة الموفد البابوي، «توماس بيتر». كان مما قال: «أيها السادة، أنقل إليكم بركات قداسة البابا، أوربان الخامس. إن آمال العالم المسيحي معقودة عليكم اليوم. خلصوه من شرور السراسنة، أولاد

الجارية.[٤٣١] قد قيل لكم أحبوا أعدائكم، وأنا أقول لكم السراسنة ليسوا أعدائكم؛ إنهم أعداء البشرية، أعداء التقدم والحضارة. بركان جاء ليحرق ويقتل ويدمر ويعود بنا إلى الوراء. يَدّعون أنهم أقاموا حضارة عظيمة. إذن فاعلموا أن ما شيدوه في الأندلس إنما اضطلع به السكان الأصليين في جزيرة «إيبيريا»؛ وآثارهم في مصر إنما هي من صنيعة القبط؛ وأما ما خلفوه في الشام فبقايا حضارة الرومان والبيزنطيين. إذا أردتم أن تعاينوا حضارة السراسنة حقا فاذهبوا إلى وسط الجزيرة العربية حيث الرمال والسراب والخيام والخرفان ليس إلا؛ تلك هي حضارة العرب. هذه حرب مقدسة فاحملوا صلبانكم وسيوفكم وأبيدوا السراسنة، أعداء الحياة. ومن حسن الطالع أن يوافق يوم وصولنا أمس التاسع من أكتوبر عيد ميلاد الملك بيير الذي أعاد أمجاد بلدوين الأول[٥٣١] وبيهيموند الأول.»[٦٣١]

قاطع الحاضرون كلمة الموفد البابوي وراحوا يهنئون الملك «بيير» بعيد ميلاده.

- عام سعيد يا مولاي.
- شكرا لكم... إن مولدي الحقيقي هو عندما أحرر أورشليم وبيت لحم والناصرة ويافا وعكا وعسقلان وغيرها من حكم السراسنة. تفضل أيها البطريرك أكمل موعظتك.

«اليوم أيضا يا سادة هو يوم استشهاد القديس ديناسيوس. أحسبكم

تعلمون أن هذا القديس عاش في القرن الثالث وأنه حين قُطعت رأسه أخذها بيده ومشى بها من مدينة سان دينيس إلى باريس لمسافة عشرة كيلومترات! لا أريدكم أن تحملوا رؤوسكم، بل صلبانكم؛ ولا أن تسيروا بها عشرة كيلومترات، بل من هنا للشاطئ... أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأتي ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض. والآن أعطي الكلمة للملك بيير.»

بدأ ملك قبرص كلمته فشكر الموفد البابوي وقادة الحملة ورجالها ثم أضاف:

- «تعلمون يا سادة أنه بعد انتهاء التواجد الصليبي في الشام فتحت قبرص ذراعيها للفرسان من كل مكان. سارعت بتشكيل جماعة أخوان السيف[٧٣١] للم شمل الصليبيين. لقد بدأت التخطيط لهذه اللحظة منذ ثلاثة سنوات. خرجت من قبرص عام ١٣٦٢م إلى البندقية ثم جنوة وأفينيون حيث زرت قداسة البابا. أخذني الحماس إلى إنجلترا والدنمارك. الحقيقة كنت مستعدا لأذهب لآخر العالم لأجيش الجيوش وأعد الترتيبات لهذه الحملة والتي تعتبر الأقوى على الإطلاق فلدينا مائة وخمسة وستين سفينة وألف وأربعمائة حصان وعشرة آلاف مقاتل. كما تعلمون قررت أن تكون رودس هي

نقطة التجمع والانطلاق حتى لا نثير الشكوك وحرصا على السرية. أرى أمامي فرسان من عائلات لها صولات وجولات في محاربة السراسنة. معنا الفارس جوليم مارتل.[٨٣] أتدرون ماذا تعني مارتل؟ المطرقة... نعم المطرقة التي ستدك حصون السراسنة. أرجوكم دققوا في الاسم. ألا يستدعي ذلك شارل مارتل[٩٣] الذي أوقف المسلمين الصاعدين من الأندلس إلى فرنسا في تور بواتيه؟[٤١] أليس هذا أمرا عظيما ويدعو للفخر؟»

أجاب الفرسان بالإثبات وارتفعت صيحاتهم بالهتافات. تابع الملك:

- «وهناك أيضا جوشيه دي شاتيون.[١٤١] ألا يذكركم هذا الاسم بشيء؟ نعم... بالطبع... رينو دي شاتيون.[١٤٢] لم نسمع عن أحد حقد على السراسنة مثله. كان من الجسارة بحيث عزم على الذهاب إلى مكة وتدمير هذا المكعب الأسود... ما اسمه يا مزيير؟»
- الكعبة يا مولاي.
- نعم الكعبة شكرا لك يا «ميزيير».

اكتفى الملك «بيير» بما قاله، ورأى أن يُنهي كلمته بتحميس الحاضرين فقال لهم: «أبلغوا جنودكم على لساني أني سأمنح أول من يعتلي الأسوار

ألفين فلورين[٣٤] من الذهب وخمسمائة للثاني وثلاثمائة للثالث. غدا نبدأ الهجوم. والآن دعونا نلقي نظرة على هذا المجسم الذي أعده لنا صديقنا «بيرسفال» لنتعرف على المعالم الاشارية في المدينة والنقاط الحاكمة وتسلسل العمليات الحربية.»

تجمع الحاضرون حول «بيرسفال» ليستمعوا إلى شرحه والموجات القتالية التي ستنزل إلى الشاطئ وتكوينها ومهامها. في الطرف الآخر من السفينة وقف المارشال «مورفو» في كمد واستياء مما يجري. كان من المفترض أن يقوم هو بإعطاء هذا التلقين على خطة العمليات. يتعمد الملك إحراجه بسبب وبدون سبب. انضم إليه كبير قواده «جيمس دي نورس»[٤٤] الذي حاول التخفيف عن سيده قائلا:

- يتحدث عن الأحمق «رينو دي شاتيون»، أرناط العرب، أضحوكة السراسنة كما لو كان بطلا.
- لا بد أن يفعل ذلك لأن جده «جي دي لوزينيان» كان رفيق سلاحه في حطين.[٥٤]
- حطين التي جلبت العار للصليبين. أنا سمعت أن الملك «جي» كان عربيدا وسفاحا وقاطع طرقات في فرنسا، وأنه لم يذهب إلى الشرق طوعا، بل نفي إلى هناك قسرا.[٦٤]
- ليس كل من يرتدي الصليب ملاكا فارسا مخلصا يا «نورس».

هناك من يتستر خلفه ومن يستغله لتحقيق مآربه. «بيير» هذا واحد منهم. كم أكره هذا الملك. أنا قائد القوات القبرصية آخر من يعلم بالخطط الحربية التي يقترحها هذا «الكولوني»!

- سيدي... لا تستغرب. عائلة «لوزينيان» تلك عائلة طفيلية تصل للحكم عن طريق المصاهرة والوراثة.
- لابد أن نخطط للإطاحة بهذا المغرور المتعجرف يا «نورس».
- سيدي... أعدك أن أكون «بروتس» الذي يسدد له الطعنة النافذة... لدي الخيط الذي نبدأ به.
- ما هو؟
- شيئان: الملكة «إليانورا»[٧٤١] المستاءة من علاقات «بيير» الغرامية ومضاجعاته للساقطات.
- بمعنى؟
- بمعنى أنها صيد سهل؛ ولقد لاحظت أنها تبدي استلطافا ناحيتك يا سيدي في المناسبات الاجتماعية.
- فعلا أتذكر في المبارزات التي عقدت أخيرا بنيقوسية أخذت يدها لأجلسها فضغطت على أصابعي بشكل عجيب.
- هذه الضغطات ما هي إلا رسالة يا سيدي.
- والأمر الثاني؟
- «فيليب إيبلين».[٨٤١]

- مسئول الشئون الداخلية بالبلاط؟
- نعم لقد نفاه «بيير» وصادر أملاكه قبيل الحملة لسبب غير معروف رغم أنه قريب لأمه التي تنتمي لنفس العائلة.[٩٤]
- أجل، لكن «بيير» لا يهتم بهذه الاعتبارات.
- ألم تلاحظ يا سيدي أنه أغفل ذكر عائلة «إيبلين» في خطبته رغم ما لها تاريخ ناصع في الحملات الصليبية المقدسة؟!
- لاحظت ذلك فعلا رغم أن طائفة منهم معنا في الحملة.
- لقد سلط «بيير» أحد رجاله فأوقع زوجة «فيليب إيبلين» في الرذيلة بعد نفي زوجها.
- حقا؟!
- المهم أن «فيليب» صعد الموضوع واعتبر أن «بيير» ينتقم في شخصه للعداء القديم بين «باليان ابيلين» الذي دافع عن أورشليم في وجه صلاح الدين من جهة وبين جده «جي دي لوزينيان».
- لا أظن ذلك؛ هذا موضوع قديم.
- تظن أو لا تظن... العبرة يا سيدي هي أن نستغل حنق «فيليب» على الملك «بيير». بمجرد أن نعود نقوم بالاتصال به ونبدأ في التخطيط لإزاحة هذا المغرور.
- دع هذا الأمر لي. بعد عودتنا سينطلق «بيير» حتما إلى البابا لجني ثمار الحملة. وقتها نعمل وندبر. «إيلانورا» ذات الأرداف

الكبيرة و»فيليب إيبلين».

- تولى أنت الملكة يا سيدي وسنكفيك نحن «بيير»
- حسن جدا.

الفصل السادس

عاد «بيير» إلى مخدعه. تناول كأسا من الخمر متذكرا هذا الشاب الإنجليزي «إدوارد إستير» الذي أودع زوجته الدير. تذكر زوجته «إيلانورا» التي يُدمن عشقها.

ظل محياها عالقا في خياله طيلة يوم الأحد ٥ أكتوبر أثناء القداس ثم الإبحار بالحملة من ميناء «قرامبوزة»[١٥٠] بخليج رودس وحين التحمت السفن ليخطب الموفد البابوي خطابا يؤجج فيه حماس الجنود الذين صاحوا «عاش الملك بيير في وجه السراسنة الكفار».[١٥١] نعم... في خضم كل هذا المجد الذي لا يحرص على أي شيء في الدنيا قدر الحرص عليه ظل وجهها أمامه مباشرة. كتب لها ذاك اليوم «كل شيء أصبح جاهزا».

حقا... كل شيء أصبح جاهزا، لكنه أهملها كثيرا خلال الثلاث سنوات السابقة. يحبها كثيرا، لكنه أيضا يحب النساء. شرب «بيير» كأسا آخر وثالثا حتى فقد وعيه. أحس بوجود أحد معه في الغرفة. نظر حوله فإذا بها الفتاة المصرية منكمشة في ركن من أركان القمرة.

كانت أنفاسها سريعة ومتلاحقة. انكمشت خائفة حين سمعت صوته ورأت سيفه. أدركت أنه الملك من هيئته. راح «بيير» يتأمل عينيها السوداويين المغرورقتين بالدموع ثم قال:

- أنت هنا أيتها المصرية. أنت هنا يا إيزيس التي تخرج سنابل

القمح من رحمها. ماذا فعلتي في هذه البلاد؟! من الذي أكسبها هذا العناد؟! هذه الأنفة وذاك الكبرياء!

الفتاة إليه في دهشة فلا تعرف لغته. أخذ بيدها فقامت معه في خضوع. داعب شعرها البني ثم وضع يده على نهدها الأيسر. تحسسه حتى شعر بحامة صدرها فأمسك بها وعصرها بشدة حتى صاحت الفتاة من الألم. شعر بدقات قلبها السريعة. خلع تاجه ثم ألبسها إياه وهو يردف:

أتعلمين؟ أبي الملك «هيو» عارض الحملات الصليبية. كان قانعا ومكتفيا بقبرص ولا يحب الإزعاج. ليس لديه قضية، لكنه كان مسيحيا مخلصا. لو كان موجودا الآن لوبخني على ما فعلته. ترك لي الحكم لأنه أحس أن طموحي قد فاق الحد. ربما خشي على حياته. ربما أحس أنني قد أتخلص منه، لكن صدقيني ما كنت لأفعل ذلك. أنا أيضا مسيحي صالح. الحقيقة ليس تماما. أنت لا تفهمين... المُلك هو الطموح وطموحي يقارع النجوم. كان أبي محبا للكتب والحكمة. لن تصدقي... أذكر أنه كان يتحدث كثيرا مع أحد الأسرى العرب عن الأدب. أظن أن اسمه كان «أبو الفضائل».[٢٥١]

تناول كأسين آخرين بينما ظلت الفتاة مرتعدة ومرتجفة. أخذها من يدها وحاول الرقص معها قائلا: «سيدتي». شاهد صليبا مدقوقا على رسغها فتوقف للحظات ثم أردف: «هذا الصليب كم قتل!» تعثرت الفتاة ووقعت على الأرض. ضحك الملك «بيير» ثم تابع:

- كان أبي مهووسا بالكتب. لقد كلف كاتبا إيطاليا اسمه «بوكاشيو»[١٥٣] ليكتب له القصص. حاول أبي أن يجعلني أحبها، لكني اخترت السيف. السيف يمزق الكتب، لكن الكتاب لا يكسر السيف، أليس كذلك؟

فهمت الفتاة من نبرة صوته أنه يوجه إليها سؤالا فاكتفت بهز رأسها في خوف. تابع «بيير»:

- تعرفين؟... لدي عشيقتين في «نيقوسية»، لكني أحب زوجتي. صحيح أنها ليست زوجتي الأولى،[١٥٤] لكني أحبها.

تناول قميص نوم شفاف أزرق اللون من على فراشه وهو يقول:

- هذا قميص نومها. آخذه معي أينما ذهبت. فيه رائحتها. أتوسده وأحتضنه. ارتدي هذا القميص من أجلي... هيا.

ألقى «بيير» بالقميص على حجر الفتاة. فهمت أنه يريدها أن ترتديه. احتسى الملك كأسا آخر من الخمر واسند ظهره إلى الفراش. ارتدت

الفتاة القميص على ثيابها، لكن «بيير» كان - كما يقول المصريون- «في سابع نومة».

حين أدركت الفتاة أن النوم غافله خلعت التاج والقميص ووضعتها بجواره على الفراش. فتحت الباب بحرص. لم يكن هناك أي حراس لأن الملك «بيير» كان لا يحب هذا الأمر. اندفعت إلى سطح السفينة وألقت بنفسها في البحر. سبحت لمترين أو يزيد ثم غاصت في الماء والظلام.

في سفينة الفرسان المتاخمة لسفينة القيادة ذهب الجميع للنوم عدا الحراسة. مر الفارس الإنجليزي «إدوارد إستير»[٥٥١] بالحارس فبادله التحية قائلا:

- كيف حالك أيها الجندي الشجاع؟
- بخير يا سيدي؟
- هل سمعت هذا الصوت؟
- نعم يا مولاي. أظنها سمكة كبيرة قفزت في الهواء.
- راقب المياه جيدا؛ القمر في المحاق، وربما قام السراسنة بكمائن أو خلافه.
- أمرك يا سيدي.
- ما اسمك؟

- «مارك أنطوان».[651]
- حقا؟!
- نعم يا سيدي.
- من أين؟
- من جنوة.
- وهل أنت في الإسكندرية للبحث عن كليوباترا؟
- لا يا سيدي... تركت كليوباترا في جنوة وهي حامل؟
- تريد صبي؟
- لا، بل فتاة.
- عجيبة! كل الرجال يحبون الذكور.
- أما أنا فأريد صبية أسميها «أليساندرا» لأتذكر هذه الأيام.
- إذن احرص على أن تعود لها سالما.
- شكرا لك يا سيدي. سوف أحرص على ذلك.

استبد القلق بفارس من فرسان قبرص يُدعى «يودس جبليت»[751] فخرج إلى سطح السفينة وهناك قابل «إستير». شعر برغبة في الحديث مع أي شخص، ربما ليتغلب على هذا القلق الذي استبد به:

- مساء الخير. أنا «يودس»... «يودس جبليت».
- أهلا بك. اسمي «إدوارد إستير» من قرية «جاتكومبي» في جزية «وايت».[851]

- أين تلك؟
- في بحر المانش الإنجليزي مقابل «هامبشير».[٩٥١]
- الطقس خرافي الليلة.
- نعم، بكل تأكيد. لا نتمتع بهذا الأجواء في إنجلترا.
- قطعت مسافة كبيرة؟
- كبيرة جدا، لكنها لا تساوي خطوة واحدة في طريق الآلام الذي سار فيه سيدنا المُخَلِص يسوع المسيح ليفدينا بدمه.
- أصبت.
- انظر إلى هذا الجندي هناك. إنه من جنوة. ترك زوجته على وشك الوضع وجاء حاملا للصليب. لا شك أن زوجته في حاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى.
- أجل.
- أنا أيضا تركت زوجتي في أحد أديرة «فاماجوستا».
- قبرصية هي؟
- لا، إنجليزية. جاءت معي من إنجلترا.
- ولماذا لم تبق هناك؟!
- سأقول لك الحقيقة. أشعر برغبة في أن يسمع أحد هذه القصة.
- هلم بها.
- في الواقع هي ليست زوجتي، لكني أنوي الزواج منها. قابلتها

أولا في السفينة المنطلقة من جزيرة «وايت» إلى «دوفر».

- تقصد أنها من نفس الجزيرة؟
- نعم، من منطقة «كاريسبرووك كاسل».[١٦٠]
- ولماذا تركتها.
- توفت أمها، وتزوج والدها من امرأة أساءت معاملتها فقررت الرحيل.
- حسن وبعد؟
- لا أدري حين رأيتها أحسست براحة كبيرة. صحيح أنها لا تعدو أن تكون فلاحة، لكن بها براءة وجمال وتلقائية لم أجدهم في صفوة سيدة المجتمع.
- جميل.
- تحدثت معها. شد انتباهي سذاجتها وسلامة نيتها. لم تلوثها الرذائل المنتشرة الآن بين البشر. أما فيما يتعلق بإيمانها فأقسم أن البابا في أفينيون لا يمتلك نصف ما لديها من محبة وإخلاص.
- رائع.
- كنت قد قررت الالتحاق بولي عهد إنجلترا، الأمير «وودستوك»[١٦١] في فرنسا بحثا عن ذاتي التي لم أجدها في قصر عائلتنا العريقة. في «دوفر» قابلت مبعوث ملك انجلترا «همفري دي بوهون».[١٦٢] كان الرجل يعرف والدي. أخبرني

أن الملك إدوارد أرسله لاستقبال ملك قبرص. أخذ يمتدح لي «بيير» وولعه بالصليب. قررت أن أقابل هذا الشخص. لم تتح لي مقابلته في «دوفر» فاصطحبت «لوسي»...

- لوسي؟!
- اسم فتاتي.
- آه.
- اصطحبتها إلى لندن.
- لندن!
- الحقيقة لقد رغبت «لوسي» في مشاهدة العاصمة فوجدتها فرصة.
- وهل التقيت بالملك «بيير»؟
- لا، للمرة الثانية لم أستطع التحدث معه، لكني قابلت مستشاره الشخصي، «فيليب ميزيير» فسحر عقلي بكلامه عن الملك وعن الحملة التي يخطط لها. أخبرته أني كنت في طريقي إلى فرنسا فشجعني على القدوم إلى الشرق لقتال السراسنة.
- ممتاز، أكمل.
- في لندن استأجرت غرفة في حانة لي و»لوسي». بعد أسبوع فقط من لقاءنا كان جسدينا ملتحمين، بل قل منصهرين. أحببتها بكل وجداني وعشقت كل ذرة من جسدها. حتى

الطين الذي بين أظافرها.

- الطين الذي بيم أظافرها!
- قلت لك أنها كانت تمتهن الفلاحة.
- أجل، أجل.
- قدمنا «فاماجوستا» بقبرص. فأمضينا وقتا سعيدا معا. كنت أعيش حالة غريبة من النشوة والهيام حتى أني نسيت أن أكتب لأهلي في إنجلترا لأخبرهم بتغيير مسار رحلتي من فرنسا إلى قبرص.
- ولوسي؟
- لا أستطيع أن أصف لك كيف تفتحت براعمها حين أحضرت سيدة صففت شعرها وجلت جسمها وألبستها فستانا وثيرا. لقد كان المارة يحسدونني عليها. لذا خفت عليها فأودعتها الدير لحين عودتي. أنظر هذا صليبها. ألبستني إياه وأنا أودعها في «فاماجوستا».
- يا لها من قصة مشوقة.
- الأجمل منها هو إصغائك لها بكل هذا الاهتمام.
- لا تستغرب يا عزيزي «إستير» فأنا أيضا عاشق مثلك.
- حقا؟ إذن حل عليك الدور يا «جبليت» لتحكي قصتك. لا أظن أن عيوننا ستعرف النوم الليلة.

- هل تعتقد أن الجنود في السفينة نائمون؟ أنهم يتظاهرون فقط بالنوم. في وقت المخاطر يا عزيزي نتذكر أحباءنا وتلح علينا ذكرياتنا.
- أصبت. والآن... ألن تحكي لي قصتك؟
- أنا مثلك من بيت نبيل في «نيقوسية». نشأت أيضا محبا للمسيح وتعاليمه.
- جيد.
- لي قريبة اسمها «ماري»[٣٦١] لطالما لعبت معها ونحن أطفال: نتسابق في المروج ونجمع الورود ونتسلق الأشجار. عندما كبرنا أحسست أن «ماري» قد صارت جزءا من حياتي لا يمكن الاستغناء عنه. قلت المناسبات التي التقينا فيها بطبيعة الحال، لكني ظللت متيما بها.
- وهل أخبرتها بذلك؟
- لا.
- لم؟
- خشيت أن تصدني فأحرم نفسي من اللحظات التي أراها فيها.
- هل هذا معقول؟!
- هذا ما حدث. زد على ذلك أنها صرحت غير مرة أنها تعتبرني أخا لها.

- وبعد؟
- لا شيء. لا استطيع الكف عن التفكير فيها؛ ولا أتخيل للحظة واحدة أنها في بيت رجل آخر.
- وما هي الخطوة التالية؟
- «ماري» عاشقة للفروسية حتى أنها كانت تبارزني بالسيف.
- جميل.
- عندما أعود سأرتدي أفضل ما لدي وأذهب إليها لأحكي لها عن مغامراتنا في الإسكندرية.
- فكرة رائعة.
- يراودني الأمل بأنها قد تقبل خطبتي.

مر الوقت والفارسان يتحدثان عن أمور عديدة: عن الإسكندرية والحرب المقدسة، عن الفروسية وأخلاقها، عن المسيح ومملكته المفقودة، وعن «لوسي» و«ماري» والحب الذي يستشرفان الغد من أجل أن يعيش ويثمر.

الفصل السابع

مع أول ضوء تقدمت السفن من الشاطئ بالقدر الذي يسمح به غاطسها. وقف الموفد البابوي، «بيتر توماس» في مكان مرتفع من سفينة القيادة رافعا الصليب يمنح البركة للمقاتلين. فجأة انطق سهم ناحيته فاستقر بين ضلوعه. وقع البطريرك على سطح السفينة، فحُمل إلى إسبتارية القادة بداخلها.

عندما رأى الجنود البطريرك يسقط هذه السقطة تشاءم شق كبير منهم، بينما أشعلت الواقعة حماس الآخرين. أُنزلت القوارب من السفن وراح الصليبيون يشقون المياه الهادئة إلى جزيرة المنار. أمطرهم السكندريون بوابل من السهام، لكن دروعهم صدت جلتها.

أصدر جنغرا أوامره بالولوج خارج الأسوار لملاقاة الفرنجة.

حاول عبد الله البنا أن يثنيه عن هذا القرار قائلا:

- مولاي، دعنا نحارب من خلف الأسوار، فهذا ينهك العدو.
- أخشى أن يخربوا مشاهد الصالحين ومزارات الأولياء.

أخذ عجمي بطرف الحديث قائلا:

- لا بأس من ذلك يا سيدي.
- كيف تقول ذلك يا عجمي؟ سيتهمنا الناس بأننا قصرنا في الدفاع

عن الرموز الدينية.

- هذه حرب يا سيدي؛ والحي أبقى من الميت.

أصر جنغرة على رأيه وركب رأسه. في أقل من ساعة كان الفرنجة قد أبادوا السكندريين على ساحل البحر. نتيجة طبيعية لالتقاء الحديد والفولاذ بالصدور العارية.

خلع الشريف الجزار نعليه ثم اندفع بالساطور نحو الملك «بيير» يريد أن يذبحه. فعاجله «يودس» بسيفه فأرداه قتيلا، لكن الساطور هوى على ذراع الأخير فطارت يده. وقع «يودس» على الأرض وهو ينظر إلى يده. وجده «إستير» على هذه الحالة فحمله إلى أحد القوارب الذي أوصله بدوره إلى سفينة القيادة.

تقهقر جزء كبير من السكندريين إلى رباط ابن سلام على ساحل البحر. اقتحم الصليبيون الرباط وكسروا نوافذه وقناديله وأحرقوه وذبحوا كل من فيه حتى أن الدماء نزلت من الميازيب كالأمطار. ظل ابن الطفّال يضرب بسيفه حتى رُزق الشهادة.

كان عبد الله بن أبي بكر مختبئا في صهريج المياه. ظل هناك يرتجف من الخوف. تذكر المتنبي الذي يعشقه. تذكر شعره في البطولة فتحمس وكاد أن يخرج للضرب والطعن، لكنه عاد فتذكر البيت الذي أودى بحياة هذا الشاعر الفحل، «الخيل والليل والبيداء تعرفني / والسيف والرمح والقرطاس والقلم» فعاد وانكمش في مكانه وهو حريص على أن لا يصدر عنه صوت. أما غريمه في الشعر، النابلسي فقد هرب من الفرنجة حتى ارتقى سطح إحدى البنايات فصعدوا إليه ورموه من فوقها فخر صريعا.

حاز الفرنجة الساحل بأكمله. لم يخربوا القبور كما اعتقد جنغرة لأنهم لم يأتوا للأموات بل للأحياء. أعادوا تنظيم صفوفهم وقرروا أن تكون الخطوة التالية هي باب البحر. بالفعل رفعوا السلالم عليه وأخذوا في دك أسواره. في هذه اللحظة أصدر جنغرة أمرا لنصف قواته على باب الديوان بالانتقال إلى باب البحر. أستدرج الفرنجة الرجل كما خططوا فاندفع عدد منهم إلى الكوة الكائنة بسور باب الديوان ونفذوا منها إلى المدينة.

احتدمت المعركة عند باب البحر، لكن الفرنجة الذين تسربوا إلى المدينة شكلوا كماشة على المتحصنين به. أصيب طارق بطعنة في ساقه جعلته عاجزا عن الحركة. مزق ثوبه وربط جرحه وانزوى إلى ركن بعيد.

تذكر «وسيلة». حاول النهوض، لكنه وقع على الأرض ثانية. استسلم لقدره كما استسلمت الإسكندرية كلها.

أصيب جنغرة إصابة بسيطة بسهم طائش فربط جرحه. حين شاهد الدمار الذي حل بباب البحر أدرك الأمير أن القبارصة سيأخذون الإسكندرية فتوجه بحراسه إلى المحبس وأخذ الخمسين أسير إفرنجي وسار بهم إلى دمنهور. امتنع بعض الأسرى عن السير فضرب عنق أحدهم فامتثل الآخرون. وهكذا أصبحت الإسكندرية بلا أمير ولا قائد.

اندفع المسلمون الذين تأخروا عن الخروج من الإسكندرية نحو باب رشيد فمات منهم نفر كثير نتيجة للتدافع تحت الأقدام، ثم حز الفرنجة رقاب الشاردين، بل وأشعلوا النيران في الباب نفسه. إلى الجنوب أغار عرب هوارة على الهاربين فسلبوا متعلقاتهم من أعز ما يملكون. وهكذا وقع السكندريون بين مطرقة الفرنجة وسنديان عرب هوارة.

جلس ابن قراجا يدخن الحشيش أمام قصر السلاح ويتعجب لماذا لم يرسل الله رسولا واحدا بشريعة واحدة إلى الناس أجمعين؟! من الغريب أن الغزاة لم يروه ولا اكتشفوا مخزن السلاح. كان هذا من لطف الله؛ ولو طلب الفرنجة من ابن قراجا السلاح لأخرج لهم ما لديه دون مقاومة!

طارت رأس صليبي بالقرب منه فجرها من منبت الشعر قائلا: «ما أعجب هذه الرأس! تطيح في لحظة فينطفئ معها نور الحياة.» جلس يقلب الرأس الدافئة يمنة ويسرة ويتذكر حين سأل ابن الربعي عن سكرات الموت، وهل يشعر بها من تُقطف رأسه بضربة نصل حاد؟ أجابه القاضي أن سكرات الموت كالحلم وأن الثانية على سطح الواقع تعدل دقيقة في قاعه. لم يفهم شيئا بطبيعة الحال. لا غرو أن بعض الناس يلجئون إلى الحشيش لينسوا هذه الأفكار المُحيرة أو يبعدوها عن عقولهم.

كلف الملك «بيير» الفارس الإنجليزي «إستير» بقطع القناة التي على الخليج حتى لا يستخدمها جيش القاهرة. انطلق «إستير» ومعه جماعة من الجنود. حاولوا قطع القناة، لكن مجموعة من العرب الشرفاء من سكان الصحراء الغربية تصدت لهم. سقط «مارك الأنطوني» مدرجا في دمائه. عندما شاهده «إستير» حاول أن ينقذه. نزل عن حصانه وهو يقول له:

- مارك... مارك... لا تذهب يا مارك قبل أن ترى ابنتك أليساندرا. أليساندرا يا مارك.

هوى أحد العربان بقطعة من الحديد على رأس «إستير» فخر على الأرض وتدحرج إلى الخليج حتى غاص نصفه الأسفل في الماء.

اندفع الفرنجة إلى المدينة فنهبوا بضائع ديوان الصادر والوارد والحوانيت والصاغة والأموال في أسواق الخشابين والبزازين والشماعين والقشاشين. مزقوا رايات الحجيج ورفعوا الصلبان. أتوا على كل ما ينبض بالحياة في هذه المدينة ظنا منهم أنهم بهذا يحصلون على بركات المسيح!!

على باب إحدى الكنائس بحي «قلزي» جلست «رينا»، سيدة قبطية مُقعَدة، بنت كاهن اسمه «جرجس بن فاضل». أعطتهم كل ما تملك حتى لا يقتحموا الكنيسة قائلة لأحدهم:

- يا بني... أما سمعت أن المسيح قال «رد سيفك... لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون.»[٤٦]
- بلى سمعت. إنما نفعل ذلك من أجل مملكة المسيح.
- المسيح قال أن مملكته في السماء وليست على الأرض.
- لا بأس، والآن أعطني هذه القلادة.

أما زوجة الدماميني فقد تأخرت في دارها مع وصيفاتها عن الهروب فدخل عليها الفرنجة ونغزهم أحدهم بسيفه في مؤخرتها. قائلا:

- أين المال؟
- في هذه الصناديق.

اقترب أحد القبارصة منها ومسك صدرها قائلا لآخر معه:

- أليست جميلة؟
- بلى.
- سآخذها.

تظاهرت المرأة أنها وافقت، واستأذنت لمعالجة جرحها. هرعت نحو نهاية الدار حيث كان هناك كومة من التبن، عليق الدواب، فتوارت فيها. انشغل الفرنجة عنها بالصناديق. فتشوا عنها فلم يجدوها فأخذوا الجواري وانصرفوا ولسان حال الإفرنجي يقول: «خسارة... كان صدرها كبيرا وطريا.»

أما اللخمي فقد كان يضاجع «شريفة» حين دخل عليهما الفرنجة فأخذوه من عليها وطيروا رأسه. نظروا إلى «شريفة» فإذا هي جسيمة وجميلة الصورة ومكتملة الحسن فخلعوا سراويلهم وناموا معها ثم تبولوا عليها وتركوها وانصرفوا.

من وراء شرخ في الحائط شاهدت «وسيلة» صبيا ممن يبيع الحلوى ضربه إفرنجي بالسيف فالتقى الضربة بيده اليسرى. عاد الصليبي فضربه على عاتقه فسقط على شقه الأيمن. راح الصبي يذب الحشرات بيده

اليمنى عن وجهه وعن جراحه حتى مات. استغرق الموضوع خمسة دقائق حتى همد جسم الصبي، لكن كيف مرت عليه هذه الدقائق الخمس؟! جاء أبوه عدوا فأخذه في حضنه وهو يصرخ باكيا: «يا رب... سميته يحيي ليحيى... سميته يحيى ليحيى!»

دخل الفرنجة على دار ابن الجباب فوجدوه يلم حاجياته. كان قد أرسل أهله الليلة السابقة إلى البحيرة. لم يصدق أن الفرنجة سيتمكنون من دخول الإسكندرية. بادره أحد القبارصة قائلا:

- الذهب.
- حاضر.
- أسرع.
- أخاف أن تأخذ الذهب وتقتلني.

أخرج الصليبي ريشة نعامة قائلا:

- هذه تكفيك القتل.

بعد أن ناولهم الذهب انطلقوا به ليخرجوه من باب رشيد حتى لا يتعرض له أحد. وجد «وسيلة» في صحبة بعضهم في الشارع. حين رآها ابن الجباب صاح قائلا:

- «وسيلة»!

- شيخ جباب أنقذني بالله عليك.
- كلنا في الهم سواء.

أخذت «وسيلة» تبكي وتنتحب. قال الإفرنجي للشيخ جباب:

- يا هذا أكان ينبغي لزوج هذه الشابة الجميلة أن يفر ويتركها؟!
- كلا.
- طارق لم يفر يا شيخ جباب. إنه يقاتل. أنت تعرف ذلك.
- اسكتي يا «وسيلة» حتى لا يقطعوا رقابنا.

وضع الرجل الصليبي ريشة النعام في عمة ابن الجباب الذي سار نحو باب رشيد فلم يتعرض له أحد. مضى الجنود بوسيلة. حمل الصليبيون الأسري في القوارب إلى السفن. أخذ الأسرى يبكون ويستغيثون وأصواتهم تصل الشط فتقطع الأكباد. كان من المأسورين حسن البياع ومحمد الخياط وأحمد النشاء و«وسيلة»... والقائمة طويلة.

نقل الصليبيون الغنائم على ظهور البغال والحمير التي صادروها من المدينة. ظلت المراكب تنقل ما استولوا عليه إلى السفن وتعود قرابة العشرة أشواط. حين انتهى الفرنجة من نقل الأسرى والبضائع قتلوا البغال والحمير على الشاطئ بشكل وحشي. تخضب المد والجز بدماء

الحيوانات والبشر. نظر كونت «بوربون» إلى المشهد من سفينة القيادة فأصيب بنوبة من الصرع. حمله طبيبه وخادمه إلى إسبتارية القادة.

«وحرموا كل من في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف»[١٦٥] لو لم تكن هذه العبارة قد قيلت في «أريحا» لقلنا أنها قيلت في الإسكندرية. يا لها من مقتلة عظيمة أعادت إلى الأذهان مجزرة بيت المقدس عام ١٠٩٩م!

في المساء كانت الإسكندرية على موعد آخر من الخسة والنذالة. قرر الفرنجة المبيت في السفن كنوع من الأمان، ومن ثم تسلل عرب البحيرة إلى المدينة فسرقوا ما تركه الصليبيون وما سقط منهم! حقا... الحقير هو من يكيل لك الضربات عندما تسقط على الأرض.

أشرقت شمس يوم السبت وجثث السكندريين مبعثرة في كل مكان. غدت الإسكندرية مدينة أشباح بعد نهبها. امتنع الفرنجة عن نزول البر وبقوا في سفنهم خارج المرمى المؤثر لسهام السكندريين.

عاد «ابن عرام» من الحج فلم يجد شيئا في الثغر، ولا حتى نائبه الذي استخلفه. قابله «ابن الربعي» قائلا:

- سيدي حمدا لله على سلامتك.

- ما الذي حدث أيها القاضي؟!
- كما ترى يا سيدي.
- نبهت السلطان من قبل إلى ضرورة تحصين المدينة وتجديد الأسطول!
- «يداك أوكتا وفوك نفخ.»
- ماذا يعني ذلك؟!
- أننا كلنا مقصرون.
- وماذا ينبغي علينا فعله الآن؟
- علاج الجرحى ودفن الموتى والحيوانات النافقة حتى لا يعم الوباء.
- أريد يعقوب اليهودي. أبعث من يأتي به إليّ.
- اذهب يا عجمي واحضره.
- سيدي القاضي... وطارق؟ فقد قدرا كبيرا من الدماء.
- لا تقلق. سأتولى أنا أمره.

حضر يعقوب اليهودي بعد مرور ساعة بالرغم من أن اليوم وافق سبتا، وقد تحصن ولفيف من اليهود في «كوم العافية».[٦٦] قال له ابن عرام:

- يا يعقوب.
- لبيك يا سيدي.

- أريدك أن تأخذ قاربا وتعلق عليه راية بيضاء وتذهب بصحبة عجمي المترجم إلى سفينة صاحب قبرص لنستنقذ الأسرى.

وافق يعقوب في محاولة لإنقاذ أبناء الإسكندرية وبناتها رغم أنه ليس له زوجة ولا ولد. كان الرجل سليم النية، أما ابن عرام» فكان سيء الطوية. قال له ابن قراجا بعد أن دخل القارب البحر:

- مولاي... لكنه يهودي.
- أعلم... ولذلك أرسلته.
- كيف يا مولاي؟
- إذا قتلوه فلا بأس نستريح منه، كما انه طاعن في السن وليس له من يبكي عليه.
- أشك في أن الفرنجة سيخلون سبيل الأسرى.
- أنا متأكد من ذلك؛ إنما أرسلته لأبتاع الوقت للسلطان وجيش المماليك.

الفصل الثامن

ألقى القبارصة بالسلالم فصعد يعقوب وعجمي إلى سطح إحدى السفن. بعد تفتيشهما اقتادوهما من سفينة لأخرى على السقالات خشبية. أخذ عجمي ينظر إلى الرجال والنساء والأطفال. تعرف على وجوه البعض. كانت هذه الوجوه تبعث برسالة رجاء أن يستنقذوهم من الأسر. أخيرا وصلا سفينة القيادة. بادر الملك «بيير» يعقوب سائلا:

- ما سمك؟
- اسمي... يوسف.
- يهودي على اسم النبي يوسف؟
- لا بل مسيحي على اسم يوسف النجار.
- هل تعتقد أن يوسف النجار دخل بالعذراء؟
- إذا كانت عذراء كما تقول يا سيدي فكيف دخل بها؟!
- حسن... هات ما عندك.
- سيدي كان والدك الملك «هيو» كريما و...
- لا تحكي لي حكاية قمح «قلاوون».
- قمح قلاوون؟!
- اسمع أيها القبطي واسمعوا معي أيها الأمراء والفرسان هذه القصة التي رواها لي والدي بنفسه لتعرفوا أن هؤلاء السراسنة خداعون وغدارون وماكرون.
- تعلمون أن مصر صومعة غلال العالم. حدث أن أرسل

السلطان الناصر، جد هذا الصبي الذي يحكم الآن سفنا محملة بالقمح المصري للشام. هاج البحر فجنحت السفن إلى جزيرتنا الحبيبة قبرص. اقتادوا الربان إلى أبي الملك فجثا على ركبتيه قائلا أن السلطان الناصر أرسل هذا القمح دفعا للغلاء والبلاء الذي نزل بالجزيرة. أبي من سلامة نيته شكر الرجل وحمله بالهدايا للسلطان الناصر. عاد الرجل ليحكي القصة في الإسكندرية فنقلها التجار البنادقة لنا. أرأيتكم؟!

- خسة وخداع... هذا دأب جميع «السراسنة».
- أجل يا «مزيير»؛ ثم أن الهدايا لا تعني؛ إنما يتبادلها الملوك من باب السياسة ليس إلا. أنا أهديت السلطان الناصر حسن سيفا جميلا منذ سنوات خلت. هيا يا قبطي... أحكي لنا حكاية غيرها.
- لم آت لسرد الحكايات يا مولاي. جئت لمهمة محددة وهي إطلاق الأسرى ومبادلتهم. لدينا خمسين أسيرا.
- أبادل ألف أسير بخمسين! أتعرف كم سيدر علينا بيعهم في سوق النخاسة؟
- مولاي...
- اسمع أيها القبطي الهرم. أنا على استعداد أن أخلي سبيل الأسرى القبط فقط، لكن بشرط.

- ما هو يا مولاي؟
- أن تتركوا هذه الخرافات القبطية وتتبعوا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. أنتم متواطئون مع السراسنة.
- مولاي...
- ألم تبعثوا لنبيهم بجارية؟[١٦٧]
- مولاي..
- قبرص هي من حمت المسيحية الآن وقديما. تذكر أن فتنة «آريوس» لم يوقفها سوى مجمع «نيقية».[٨٦١] ماذا قلت؟

تمتم يعقوب بهذه الكلمات وكأنما يحدث نفسه:

- «اللعنة عليكم وعلى مجامعكم.»
- ماذا تقول يا قبطي؟!
- مولاي هذا القرار لا أملكه، ولا استطيع أن أعود لابن عرام بالقبط» وحسب. سيظن أن في الأمر مكيدة.
- هل تعلم أن الأرثوذكس في قبرص يتحولون الآن إلى الكاثوليكية، بل والبيزنطيون أيضا، أليس كذلك يا «كالوفيريوس»؟[١٦٩]
- بلى يا مولاي لقد اعتنقت الكاثوليكية لأنها العقيدة الصحيحة التي أتى بها يسوع المسيح.
- وهل تعلم يا قبطي أن القديس مرقص، مؤسس كرازتكم زار

قبرص مع «برنابا» الرسول.

- لا.
- ماذا تعرف إذن؟!
- مولاي...أنا رجل بسيط لا تستوعب جمجمتي هذه الأشياء.
- حسن يا يوسف.

الشيء الوحيد الذي يمكنني التفاوض بشأنه هو الأسرى القبط مع تحقق الشرط الذي ذكرته. سنحمل السراسنة إلى «فاماجوستا»، أما اليهود، قتلة المسيح، فسنلقي بهم في عرض البحر.

- لم يا مولاي؟
- لم ماذا؟!
- لم لا تعفو عفو الكرام.
- صحبتك السلامة.
- لكن يا مولاي.
- لكن ماذا؟
- جئت أنشد شيم الفرسان.
- اسمع يا هذا...عد إلى ابن عرام وقل له يرسل لنا أسماء وبيانات الخمسين نفر الذين في حوزته. انتهى وقتك.

شكرا لك يا مولاي.

عاد يعقوب اليهودي يقص على ابن عرام ما حدث. فعلا أرسل ابن عرام - من باب الاحتياط - من يُحضر أسماء الأسرى وجنسياتهم من دمنهور. لم يفته أيضا أن يبعث برسالة توبيخ إلى جنغرة. تأخرت الإمدادات القادمة من القاهرة كثيرا.

عقد الملك «بيير» اجتماعا تشاوريا مع قواده. بدأ الاجتماع برثاء القتلى. أقام الصلوات عوضا عن الموفد البابوي بطريرك «نيقوسية».[170] التفت الملك «بيير» إلى «فيليب دي ميزيير» سائلا:

- كيف حال الموفد البابوي، صديقنا العزيز «توماس»؟
- جرحه شديد يا مولاي.
- و»يودس»؟
- كوى الطبيب ذراعه عند موطن البتر. لو لم يتقرح الجرح فسيعيش.
- ابعث بطبيبي الخاص «دي ريجيو»[171] إليهما يا «مزيير».
- أمرك يا مولاي.
- وهل هناك أخبار عن الفارس الإنجليزي «إدوارد إستير»؟
- نعم يا سيدي. لقد وقع في الأسر.
- مسكين.

أُعدت النعوش الموسومة بالصليب، ثم بدأ إجراءات فك الحبال ونزول الصناديق على المحفات لتستقر في قاع البحر. كان الجو دافئا وخشوا على الجثث من التعفن قبل وصولها إلى قبرص. أخذ أسقف «ليماسول»[١٧٢] يسرد أسماء القتلى:

- القس «جون جروسواردن»[١٧٣]
- «آلان دي شامبين»[١٧٤]
- «جين دي شاتيوموراند»[١٧٥]
- «جادفير فونكرشن»[١٧٦]
- «نيكولاس جارا»[١٧٧]
- «جولي مدي تريمولي» وابنه «فيليب دي تريمولي»[١٧٨]
- «جين دي فيين» وأخيه «جاك سدي فيين»[١٧٩]...

بعدها أثنى الملك على جهود رجالات الحملة وقرر منحهم الصليب النحاسي وهو وسام قبرصي من أرض النحاس.[١٨٠] بدأ حاجب الملك في النداء على المُكَرَمين:

- الفارس «روبرت هيلز»،[١٨١] من فرسان داوية رودس.

قلده الملك «بيير» الصليب النحاسي وهو يقول له:

- من الآن فصاعدا ستُعرف في العالم المسيحي كله «ببطل

الإسكندرية».

- شكرا لك يا مولاي.
- «جراي دي مودنور».[١٨٢]
- لورد «جراي»، كان من أوائل من اقتحم الإسكندرية حاملا علم الكنيسة. أهدي لك صليب «قبرص» النحاسي.
- شكرا لك يا مولاي.
- «ستيفن سكروب».[١٨٣]
- أما أنت يا «سكروب» فأنا أرسمك فارسا في المكان الذي شهد بطولاتك الخارقة.

انحنى «سكروب» أمام الملك «بيير» الذي وضع سيفه على كتفه وهو يتلو قسم الفارس:

- دافع عن الفقراء والضعفاء. قل الصدق دائما حتى لو كان هذا يفضي إلى حتفك. هب نفسك للكنسية واخلص دوما لسيدك. كن جسورا ولا تجعل الخوف يثنيك عن أداء واجبك. لا تنزع درعك ولا تغمد سيفك إلا للنوم. لا تجتمع مع آخر على قتال عدوك، بل نازله فردا لفرد. والآن انهض فارسا.

استمر الحاجب في النداء على أبطال الحملة الذين حظوا بالتكريم.

- «جون دي سير»،[١٨٤] قبطان سفينة القيادة... «وليم

ميدلتون»[185] من داوية رودس... «السيد جين دي ريمس»[186]... يودس جبليت»[187]...

- أنا مدين لهذا الرجل «يودس». تلقى ضربة موجهة إليّ فقطعت ذراعه. خذ هذا الصليب يا «مزيير» ودعنا نعوده لاحقا.
- أمرك يا سيدي.
- والآن يا سادة بعد أن خربنا الإسكندرية وقتلنا فيها نحو خمسة آلاف أو يزيد وأسرنا ربع هذا الرقم وغنمنا الكثير ودفننا موتانا وكرمنا الشجعان منا، أقترح أن نُقوي تحصيناتنا في المدينة ونستغلها كنقطة انطلاق وقاعدة إدارية نحو الشام حتى نسترد ممالكنا اللاتينية التي فقدناها. إن طموحي يا سادة يتجاوز ذلك إلى السيطرة على الساحل بأكمله حتى «طنجة»، ومن ثم نعيد «البحيرة الرومانية» إلى سابق عهدها. هل لأحد رأي آخر؟
- مولاي بالنيابة عن داوية رودس أرى أن ننطلق إلى «القاهرة».
- حسن يا «فيرلينو». ليست مندهشا بعد البطولات التي عايناها من فرسان رودس.
- اسمح لي يا جلالة الملك.
- نعم يا كونت «تيرين»[188]
- أنا أرى أن ننسحب من الإسكندرية.

- ننسحب؟!
- نعم يا جلالة الملك. السؤال يا سادة هو «لو احتللنا هذه المدينة فكم من الوقت سنمكث فيها؟ سنة؟ عقد؟ حتما سيظهر هانيبال جديد يناوئ وجودنا: هانيبال القرطاجي وهانيبال المصري وهانيبال الشامي. سنرحل كما رحل غيرنا.» المصريون أنفسهم احتلوا قبرص ثلاثة مرات قبل الميلاد،[189] لكنهم في النهاية رحلوا. ثم لا يجب أن يقتصر حكمنا على المكاسب العسكرية وحسب لأنه هناك مصالح أخرى سوف تتأثر بوجودنا هنا.
- تقصد التجارة من جديد؟
- أجل يا جلالة الملك.
- كرهت هذه الكلمة.
- التجارة جزء من الحرب يا مولاي. إذا أردنا فعلا أن نحارب المماليك دعونا نبحث عن طريق تجاري آخر لا يمر بالإسكندرية.[190]
- اللعنة على التجارة.
- لا تنسى يا مولاي أن البابا السابق، «كليمنت السادس»[191] أجاز للبنادقة التجارة مع المماليك.
- تقصد البابا الذي تربطك به صلة قرابة والبنادقة الذين بعت

لهم التراخيص البابوية. التجارة تنسحب على هذا أيضا؟! أليس كذلك يا كونت «تيرين»؟

قالها الملك بحدة فرد عليه الكونت بنفس النبرة الحادة قائلا:

- التجارة تنسحب على كل شيء أيها الملك. تذكر أن جدك «جي دي لوزينيان» اشترى جزيرة قبرص، حاضنة مُلكك، من الملك «ريتشارد قلب الأسد» بعد أن استولى الأخير عليها.
- ابتاعها جدي لتكون قاعدة للإغارة على السراسنة، لا لكي يتاجر معهم بدم المسيح.
- اسمح لي يا جلالة الملك.
- تفضل يا «فيرلينو».
- بصفتي قائدا لداوية رودس أعلن بالنيابة عن فرساني رفضنا للانسحاب، وأود أن أضيف أن التجارة مع المصريين لا تجلب سوى الدمار والفرقة بيننا. أذكركم يا سادة بالتمثال المهيب الضخم الذي كان يقف في مدخل جزيرتنا.
- تقصد عملاق «رودس»؟
- أجل يا مولاي.
- سمعت أنه كان أعجوبة من عجائب الزمن كالأهرامات.

- أجل يا مولاي. استغرق بناءه اثني عشر عاما، لكن له قصة لا تنفصل عن مناقشاتنا الآن.
- كيف؟!
- في عام ٣٠٤ قبل ميلاد السيد المسيح احتفظ «روديان»،[١٩٢] حاكم جزيرتنا بعلاقات تجارية ضخمة مع حاكم مصر البطلمي، «سوتر»[١٩٣] الأمر الذي أثار غيرة حاكم مقدونيا أظن كان اسمه «أنتيجونيوس»[١٩٤] فحاصر الأخير جزيرتنا، لكنه انهزم وعاد إلى بلاده مخلفا أكواما من الدروع والسيوف استخدمت في بناء التمثال. أرأيتم كيف تفضي التجارة مع المصريين إلى الوقيعة بيننا؟!
- سمعت هذا أيها الكونت «تيرين».
- نعم يا مولاي. على أي حال أقترح أخذ الأصوات على الاستمرار في الحملة من عدمه. أظن أن هذا مطلبا عادلا.

ذهب طبيب الملك ليلقي نظرة على الإسبتارية التي كان فيها الموفد البابوي، «بيتر توماس» والفارس «يودس جبليت» و«لويس الثاني»، دوق «بوربون» وطبيبه الخاص. تبادل الطبيبان التحية. انتحى طبيب الملك بطبيب الدوق جانبا وهو يقول له:

- ما كان يجب أن يأتي «الدوق» إلى الإسكندرية يا

«جراندفيل».

- جاء لاعتبارات سياسية ليس إلا أيها الطبيب «دي ريجيور». لم يشترك أساسا، ولم يغادر السفينة؛ إنما جاء ليسجل اسمه.
- إذن ماذا حدث له؟!
- إنه يحب الحيوانات كثيرا وحين شاهدها تُذبح أصيب بانهيار عصبي.
- ما بالك لو رأي الأطفال تنحر كالخراف أو يقذفون إلى الحوائط فتنفجر أدمغتهم.
- إن قلبي ينزف ويتمزق على حاضرة الدنيا ومدينة الطب.
- هذه هي الحرب يا جراندفيل.
- اللعنة على كل الحروب.

في هذه اللحظة طلب الموفد البابوي كوبا من الماء. ناولته امرأة الماء. نظر الطبيب «جراندفيل» إلى المرأة متعجبا:

- من هذه؟!
- آه... نسيت أن أخبرك. لقد انتقيت خمسة أسيرات نظيفات ليقمن على خدمة المرضى...طبعا في وجود الحراسة وهذه واحدة منهن؛ أما الأخريات فقمت بتوزيعهن على المشافي في السفن الأخرى.

- فكرة جيدة. تدفع النساء دائما ثمن الحرب منذ خطف السابينيات[١٩٥] من قبل سكان روما.
- أجل، لكن كان هذا لاسترحامهم.
- استرحامهم أو استرقاقهم... ما الفرق؟!
- أصبت... كيف حالك أيها البطريرك؟
- لست على ما يرام يا طبيب الملك.
- سيزورك جلالته بعد قليل. وأنت أيها الفارس الشجاع «جبليت» كيف حالك؟
- الشكر للرب.
- أرى جرحك نظيفا. هل تقوم هذه الفتاة بخدمتك بشكل جيد.
- على نحو لا تتخيله.
- حسن جدا.
- كيف انتهت مفاوضات الأسرى يا طبيب الملك؟
- لا أعتقد أنها حققت أي نجاح أيها الفارس.
- كم أشعر بالأسى يا قداسة البطريك على هؤلاء الأسرى.
- هذه هي الحرب يا «جبليت».
- سيدي أنا قرأت أن «أكاسيوس»،[١٩٦] أسقف مدينة «أميدا»[١٩٧] باع ذهب الكنيسة وفضتها ليفتدي الأسرى الفارسيين حتى يعودوا لذويهم.

- أجل.
- لماذا لا تتبنى موقفا مشابها. على الأقل الأطفال والنساء. أقسمنا على ذلك ونحن نأخذ عهد الفروسية.
- هذا قرار سياسي يا «جبليت»؛ وهذه حرب مشروعة وعادلة، أما عهد الفروسية فيجب أن تتحلى بالمرونة وأنت تتحدث عنه. السراسنة أيضا يقولون أنهم لا يقتلون الشيوخ والأطفال والنساء ولا يحرقون الخيام أو يقطعون الأشجار، لكن واقعهم شيء مختلف.
- والقبط أيها البطريرك. إنهم يؤمنون بيسوع المسيح.
- أنت سألتني هذا السؤال من قبل؟!
- كلا... كان سؤالي مختلفا؛ قلت لقداستك «كيف سنتعرف على القبطي من المسلم في المعركة؟»
- وبماذا أجبتك؟
- أجبتني أن جندي وجه هذا السؤال للبطريك، «أرنود أمارلك»،[١٩٨] الموفد البابوي لإحدى الحملات الصليبية في جنوب فرنسا، فأجاب «اقتلهم جميعا وسيعرف الله من يخصه.»
- نعم، ذلك لأن القبط مهرطقين ويستحقون القتل.
- أتدري قداستك؟... حين طارت يدي على الأرض تذكرت

القصة التي سردتها على آذاننا عن القديس « ديناسيوس» الذي سار عشرة كيلومترات يحمل رأسه المقطوعة . لقد كانت كف يدي على مسافة ثلاثة أمتار ولم استطع حتى استنقاذ خاتم أبي منه.

- إذا آمنا حقا مشينا على الماء.
- لست السامري الصالح، لكني أيضا لست عربيدا.

أعلن الحاجب عن قدوم الملك. دخل «بيير» ومعه مستشار الحملة «بيرسفال الكولوني» فاطمئن على النفر الثلاثة. قدم الصليب النحاسي لجبليت:

- مولاي أنا لا استحق هذا الصليب.
- لم؟!
- لم آت للإسكندرية لآخذ النساء والملابس والتوابل.
- وأنا معك فيما تقول أيها الفارس الشهم. إنما جئنا لنحرر أورشليم، لكن بعض الفرسان لهم رأي مختلف. لقد انفض للتو اجتماعنا وأخذ أكثر من نصفهم قرارا بالانسحاب.
- خسارة.
- وأي خسارة... قد لا تُتح لنا هذه الفرصة مرة أخرى. لقد تركتهم يراجعون خطة الانسحاب مع مارشال قبرص.

- «مورفو»؟
- نعم، ذاك الذي لا يُجيد سوى الانسحابات والارتدادات... تمنَّ عليّ يا «جبليت». أنت تستحق أكثر من ذلك بكثير. لقد أنقذت حياتي. اسمع سأعطيك الصليب النحاسي وأي شيئين آخرين.

حسن يا مولاي. أريد هذه الفتاة.

- نظر الملك «بيير» إلى «وسيلة» نظرة فاحصة. وقتها فقط تذكر تلك الفتاة المصرية التي كانت في قمرته ليلة الغزو. قال معلقا:

لديك حق... فتاة جميلة فعلا. لم أكن أتخيل أن المصريات يمتلكن كل هذا الجمال. ما اسمك؟

لم تفهم المرأة سؤال الملك فترجم لها «بيرسفال» السؤال لأنه كان ملما بقدر طيب من اللغة العربية.

- «وسيلة».
- «وسيلة»... وا سي لا... به بعض الموسيقى. وماذا عن الأمنية الثالثة يا «جبليت»؟
- لا يحضرني شيء الآن. أستبقيها لقادم الأيام. ربما طلبتها من جلالتك يوما ما.
- وهو كذلك.

وصل الخبر بجلاء القبارصة عن الإسكندرية للسلطان الأشرف شعبان. كان قد دخل إقليم البحيرة.[١٩٩] جاءته أيضا أنباء أن ملك الحبشة، «نيوايا موريام»[٢٠٠] جهز جيشا لمهاجمة مصر من الجنوب بعد أن علم بغزو الملك «بيير» للإسكندرية. أراد أن يرفع الجور الواقع على الأقباط بعد أن استنجد به بعض نفر منهم. أرسل السلطان شعبان جزءا من الجيش بقيادة «طيبغا الطويل» إلى حافة الصحراء الغربية ليدخل الإسكندرية من ناحية وادي النطرون وعاد بالنصف الآخر إلى القاهرة.

في صبيحة يوم الجمعة ١٦ أكتوبر وصل «طيبغا» إلى قنطرة الخليج جنوب الإسكندرية وأخذ يحاول إصلاحها ليتمكن من العبور. سلمه العرب بعض الفرنجة الذين أسروهم في واقعة القنطرة. كان منهم «إدوارد إستير». في نفس اللحظة عاد رسول ابن عرام من دمنهور ومعه ورقة بأسماء أسرى الفرنجة، لكن السفن الصليبية شرعت في الإقلاع تاركة الإسكندرية.

تبين أن الحمولة ثقيلة فألقى الصليبيون بالأسرى السمان وبعض البضائع في الماء. كان الجنود متعطشون للجنس فاغتصبوا امرأة ممتلئة حتى نزفت ثم ألقوا بها في عرض البحر وهي تصرخ « أنا قبطية، قبطية!» نزلت المرأة في الماء كالحجر الصنوان ولم تعد. لم يبق منها سوى بعض بقع

من الدماء سرعان ما غسلتها المياه المالحة.

أطلق بضع نفر من السكندريين السهام على السفن الراحلة. قال أحد القابعين في نقطة للمراقبة:

- كفوا عن رمي السهام نحو السفن. ألا تعرفون أن فيهم أسرى المسلمين؟!
- وألا تعلم أنت أن الإمام «أبو حنيفة» أجاز الرمي في حصون المشركين وإن كان فيهم أسرى المسلمين وأطفالهم؟
- وما لنا و»أبو حنيفة»! قل لي ماذا قال «ابن حنبل»؟
- الويل لنا من الحنابلة إذا بعنا لهم عقولنا. قل لي ماذا قال «الشافعي».

وهكذا عادت الإسكندرية للجدل حول فتاوى الأئمة وسفاسف الأمور. هل تراها قد وعت الدرس؟ لا نظن. فعندما ترى الناس تجدد المزارات والأضرحة قبل أن تصلح الحصون والقلاع؛ وعندما ترى بعد جلاء القبارصة الناس يغطسون في الميناء لاستخلاص بعض ما ألقته السفن في الماء؛ وعندما ترى أمهات الأسرى تستنجد بسيدي «المرسي» أن يُحضر أحبائهم على حصانه الطائر كما كان يفعل من قبل تدرك أن الإسكندرية لم تستوعبه!

الفصل التاسع

في منتصف الطريق إلى «فاماجوستا» مرت الحملة الصليبية بسفينة تجارية تستغيث. كان على السفينة سيدة إنجليزية قادمة من أورشليم تُدعى «إيزولدا بريدجوتر».[١٠٢] صعدت المرأة إلى سفينة القيادة ووقفت تحكي للملك «بيير» قسوة المسلمين في التعامل مع المسيحيين في أورشليم كنوع من الانتقام بعد ما حدث في الإسكندرية. أضافت أنها نجت بصعوبة عن طريق بذل المال لبعض التجار. أردفت:

- مولاي أريدك أن تصطحبني للبابا في أفينيون. سأخبره عن البشاعات التي تُرتكب في الأراضي المقدسة. لقد أغلق سلطان السراسنة دير سانت كاترين وكنيسة القيامة ووضع ستة عشر من القساوسة الفرنسيسكان في الحبس.
- قبل البابا أريدك أن تقولي هذا الكلام للكونت «تيرين» وكل من صمم على الانسحاب من الإسكندرية بعد أن سيطرنا على المدينة بالكامل.
- ما كان يجب عليكم أن تتركوها.
- اسمعي أيتها السيدة المبجلة. تأتين معنا إلى قبرص ثم نذهب معا إلى البابا؛ واسمحي لي أن تنزلي في ضيافتي هنا وفي جزيرتي الحبيبة.
- شكرا لكرمك أيها الملك العظيم.

أخرجت « إيزولدا» هذه الكلمات وهي تجهش في البكاء. أخذها «بيير» بين ذراعيه ليمسح دموعها. بالرغم أن المرأة كانت في منتصف الخمسينيات من عمرها وترتدي ثوب الراهبات أحست أن الملك يضمها إلى صدره ويعصر نهديها بمرفقيه فتركته قائلة:

- اسمح لي يا مولاي الاعتناء بالمرضى. هذا ما كنت افعله في أورشليم.

نظر أليها بيير مرتبكا ثم قال:

- تفضلي، والشكر موصول لك.

توجهت «إيزولدا» إلى إسبتارية القادة. كان الموفد البابوي «بيتر توماس « قد دخل في غيبوبة تامة. نظرت إلى «وسيلة» قائلة:

- من أحضر هذه المرأة هنا؟!

- نظر إليها «دوق بوربون» وهو يستعد لمغادرة فراشه بعد أن تعافى ثم رد قائلا:

- الطبيب. لم؟

- لا ينبغي أن تقوم نساء السراسنة بتطبيب الجرحى الصليبين. لا يمكن أن يُؤمن شرهن. لا بد أن تنصرف هذه المرأة.

نظر إليها «يودس» قائلا:

- سيدتي أرجو أن تُهدئي من روعك. إنها فتاة وادعة. لقد وهبها الملك لي؛ وهي في معيتي؛ وعلى أي حال سنصل قبرص في

ظرف يومين ويذهب كل منا إلى حال سبيله. أنا سمعت أنك متوجهة للقاء البابا؟

- أجل. ثم أعود إلى إنجلترا الحبيبة.
- سيدتي. اهتمامك بصحتي شيء جميل ومحمود، لكني مررت بالمرحلة الحرجة. الحقيقة يمكنك أن تُسدي لي معروفا آخر.
- حسن... ما هو؟

حكى لها «يودس» عن رفيق السلاح «إستير». طلب منها أن تكتب لأهله في جزيرة «وايت» أو تُرسل لهم ليفتدوه من الأسر. أخذت «إيزولدا» البيانات كلها ووعدته أنها ستفعل ذلك بمجرد أن تطأ قدميها إنجلترا.

حلت النقمة على الغزاة. بمجرد العودة إلى «فاماجوستا» مات الموفد البابوي «بيتر توماس» متأثرا بجراحه. أصيب «فيليب ميزيير» بحالة من الاكتئاب بسبب موت صديقه الأثير فاعتزل الناس.

شاهدت الملكة «إيلانورا» زوجها الملك «بيير» في صحبة السيدة الإنجليزية «إيزولدا» فأقامت الدنيا ولم تقعدها. «بيير» هذا لم يترك جنسية معروفة على وجه البسيطة إلا ذاق نسائها. احتارت معه وأدركت

أنه لا سبيل لتقويمه. ما أصعب أن تتزوج المرأة زير نساء!

في ميناء «فاماجوستا» وقفت لوسي تنظر إلى السفن القادمة وتجول بناظريها بحثا عن حبيبها «إستير». ربطت كل السفن في الميناء وغادرها ركابها إلى أحضان زوجاتهم وأولادهم وأمهاتهم، لكن «إستير» لم ينزل. ماذا يعني ذلك؟! شاهدت فارس إنجليزي يُدعى « مايلز دي ستابليتون»[٢٠٢] فاندفعت إليه سائلة:

- سيدي المعذرة. أريد أن أسألك عن خطيبي، فارس إنجليزي اسمه «إدوارد شارلز إستير»؟ هل جاء معكم؟ وهل هناك سفن أخرى في الطريق؟
- «إدوارد ستير» من جزيرة «وايت». نعم أعرفه. شاب شجاع. للأسف فقدناه في المعركة.

ما إن سمعت «لوسي» هذه الكلمات حتى فقدت الوعي وانهارت على الأرض فحملها «ستابليتون» إلى حانة قريبة في الميناء، وتركها هناك في رعاية صاحب الحانة وزوجته. أفاقت «لوسي» بعد ذلك لتجد هذه السيدة الحنون تحاول أن تسقيها بعض الماء. قررت لوسي أن لا تعود إلى الدير. حكت للمرأة عن قصتها فعرضت عليها الأخيرة العمل معها في الحانة. وافقت لوسي لتبقى في الميناء وتتفقد السفن القادمة إليه.

عاد «يودس» إلى ضيعته في «نيقوسية». ساءت حالته النفسية بعد أن فقد الذراع الذي طالما حمل السيوف ورمى بالرماح والحراب في أرمينيا وغيرها. ألحق «وسيلة» بمطبخ القصر وعاملها أفضل معاملة. اطمأنت له «وسيلة» كثيرا، لكنها ظلت صامتة فلا أحد يفهم لسانها. استبد بها القلق على طارق. إذا كان على قيد الحياة فلا بد أنه سيشرع في البحث عنها فهي متأكدة من حبه لها. الموت فقط ولا شيء غيره يستطيع أن يغيبهما عن بعضهما البعض.

في مصر أصدر الوزير «يلبغا» مرسوما بتغريم النصارى في مصر والشام لإصلاح التلفيات التي أحدثها الصليبيون عملا بمبدأ مملوكي جائر يقضي بأن الحسنة تخص والسيئة تعم. أُلقي أيضا القبض على القديس «مرقص الأنطوني» رئيس دير «الأنبا أنطونيوس» غرب رأس غارب لأنه قاوم هذا الجور. سيق الرجل إلى القاهرة هو وكهنة الدير سيرا على الأقدام! مُنعوا من الطعام والشراب. أشرفوا على الهلاك لولا رحمة السماء التي استمطروها فأمطرتهم.

دخل قائد الجيوش المملوكية، «طيبغا الطويل» الإسكندرية فأودع المأسورين المحبس وشرع في حصر التلفيات. أرسل تقريره إلى السلطان بضرورة الشروع في بناء سفن قوية وزيادة تحصينات المدينة. اقترح على

السلطان أيضا عزل والي الإسكندرية وتعيين آخر مع زيادة الصلاحيات الموكلة إليه.

استعاد «طارق» عافيته والتأم جرحه. بحث عن «وسيلة» في كل مكان بالإسكندرية فلم يجدها. تأكد أنها لم تكن ضمن القتلى أو المصابين. قرر أن يبحث عنها في ربوع مصر كلها.

عاد السكندريون إلى الثغر على استحياء: النويري وابن الجباب وغيرهم. وجد الشيخ جباب طارق يهم بالرحيل فقال له:

- لن تجدها في البحيرة يا طارق أو أي مكان آخر. لو كانت في مصر لعادت كما عدنا.
- أنت تعرف شيئا عنها يا شيخ جباب؟ أخبرني بالله عليك. لا أنام الليل قلقا عليها. ليس لي أحد غيرها. إنها عائلتي وكل حياتي.
- اسمع يا طارق لقد أخطأت في حقك، وأريدك أن تسامحني.
- أخطأت في حقي! كيف؟

حكى الشيخ جباب لطارق عن ما حدث يوم اقتحم الفرنجة داره وأسروا «وسيلة». رفع رأسه المطأطئة نحو الأديم قائلا:

- هذه الريشة هي عاري يا طارق. ريش النعام رمز الثراء ورمز الخزي. دفنت رأسي في الرمال مثل هذا الطائر الساذج. تخاذلت عن نصرة الدين بالذهب فسلبه من الفرنجة. سامحني... كان ينبغي أن أتصدى لهم، لكني كبير في السن كما تعلم، ولا طاقة لي على حمل السيوف.
- هل يعني ذلك أن «وسيلة» قد أسرها الصليبيون؟ آه. يا الله... يا الله.
- أريد أن أكفر عن ذنبي يا طارق. صحيح أنهم أخذوا ذهبي، لكن معي بعض المال. يمكنني أن أستنقذ به أسير أو اثنين.
- يفعل الله ما يريد.
- سامحني يا طارق.
- غفر الله لك.

في يوم الجمعة ٢٣ أكتوبر تجمعت بعض السحب الداكنة فوق الإسكندرية وزخت السماء غير مرة لتغسل النجس الذي علق بها. وقف القاضي، «ابن الربعي» يخطب في الناس. كان مما قال لهم: «وضعت الحرب أوزارها. نحن مسئولون عن ما حل بنا من بلاء بسبب ذنوبنا وبدعنا وخلافاتنا وسخافاتنا. هل تصدقون يا سادة أن امرأة ثكلى ذهبت تشتكي حالها لأحد المشايخ لن أسميه، فبدلا من أن يربت الشيخ على

كتفها ويواسيها لأنها فقدت طفلها الذي لم يتجاوز العشر سنين قال لها بضرورة أن تحشو سرتها بالقطن لأن الرياح تكشف تفاصيلها؟! هل هذا معقول؟!

يا أخوان استعينوا بالله، وهبوا لاستنقاذ أسراكم. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لأن استنقذ رجلا من المسلمين من أيدي الكفار أحب إليّ من جزيرة العرب. علينا بالعجلة. أتدرون؟ حين ضرب الفناء العظيم قبرص عام ٧٤٩ هجرية جمع أهلها من بأيديهم من أسرى المسلمين فذبحوهم جميعا من العصر للمغرب خوفا من أن يبيد الفرنج ويملك المسلمون الجزيرة.

شيء آخر يا أهل الثغر؛ أشعر أن بيننا من لا يعمل لمصلحة هذه المدينة ويتعاون مع الفرنجة، ليس هذا بجديد؛ تذكروا عام ٥٦٩ هجرية حين اتفق اللعين «وليم النورمندي»،[٣٠٢] ملك صقلية مع أنصار الفاطميين فجاء لينتزع مصر، لكن الله أخزاه. انكشف الملعوب، وصلب صلاح الدين المتآمرين. لا تتركوا هؤلاء يعيشوا بين ظهرانيكم.

أعود فأذكركم بضرورة أن نتكاتف معا لاستنقاذ الأسرى. صحيح أن الأمر موكول لمن بيده حكم البلاد، لكننا نستطيع أيضا أن نساهم سواء

بالمال أو خلافه. هذا ما فعله شيخ الإسلام، ابن تيمية من قبل حين كتب رسالة يحث فيها ملك قبرص على إخلاء سبيل الأسرى.

وأختم خطبتي بأبيات موجعة لأبي فراس حين وقع في أسر «الروم»:[٢٠٤] أقول وقد ناحت بقربي حمامة / أيا جارتا هل بات حالك حالي / أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا / تعالى أقاسمك الهموم تعالي / تعالي تري روحا لدي ضعيفة / تردد في جسم يعذب بالي / أيضحك مأسور وتبكي طليقة / ويسكت محزون ويندب سالي / لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة / ولكن دمعي في الحوادث غالي.»

علم يودس جبليت أن عشقه الأبدي «ماري» ستأتي لزيارته بصحبة أبيها «هنري دي جبليت»، كونت نيقوسية. سارع بالتوجه إلى حجرة «وسيلة» ليطلب منها ترتيب المنزل. فتح غرفتها دون استئذان فوجدها نائمة شبه عارية في الفراش.

نظر «يودس» إلى جسمها الشهي بلون الخمر. اقترب منها، وراح يتفرس في منبت الشعر الأصفر في فخذيها، ويشتم رائحة جسمها المصبوب كتمثال من اللجين والتبر. أحس أن شيئا تحرك داخله فعاد أدراجه وسارع بإغلاق الباب.

في هذا اليوم قرر «يودس» أن يرسل «وسيلة» بعيدا من البيت. في المساء حضر السيد «هنري» ومعه ابنته «ماري». قدمت «ماري» باقة من الورود «ليودس» قائلة:

- جمعتها لك بنفسي.
- من نفس المكان الذي كنا نلعب فيه ونصطاد الضفادع؟
- نعم يا «يودس».
- «يودس» انتهى يا «ماري».
- لا تقل ذلك.
- أقصد الفارس «يودس».

متأثرا بحديث «يودس» تدخل السيد «هنري» قائلا:

- يا بني الفروسية ليست فقط حمل السيوف.
- أصبت يا أبي الفارس بشهامته وأخلاقه. سمعنا أنك أنقذت الملك من الموت؟
- نعم يا «ماري». صدقيني لم أفعل ذلك حبا في «بيير»؛ لدي تحفظات على كثير مما جرى في الإسكندرية والملك مسئول عن كل هذا بصفته قائد الحملة. لقد سعيت للحفاظ على رمز الحملة ليس إلا.
- مفهوم. سمعت أيضا أنك نلت الصليب النحاسي. أين هو؟ لا أجده على الحوائط.

- لم لا تضعه في الردهة ليراه الزائرون؟
- لا أشعر بكثير من الزهو لامتلاكه. هل تقبلينه مني يا ماري؟
- هل أنت جاد. بالطبع. أين هو؟
- في غرفتي.

انطلقت ماري ببساطتها وعفويتها وروحها الوثابة وشقاوة الطفلة التي لا تكبر إلى غرفة «يودس». تعرفها جيدا. لطالما لعبت فيها وهي صغيرة. حاول «يودس» أن يثنيها عن ذلك ويُرسل أحد الخدم ليحضره، لكن دون جدوى.

عادت ماري بالصليب النحاسي، لكنها لم تكن ماري التي صعدت الدرج منذ دقيقتين. كانت شاردة ومتحيرة، أما «يودس» فقد ظهرت عليه أعراض حالة من الارتباك. انفرج الموقف المتأزم مع دخول وسيلة ومعها الشراب فأشار «يودس» إليها قائلا:

- انظري إلى هذه المرأة يا ماري.
- من تلك يا «يودس»؟
- هذه إحدى ضحايا الحملة. اسمها «وسيلة». أرجوك يا «ماري» أن تقبليها هدية مني إليك.
- هي أيضا؟!

- نعم، وأن تحسني معاملتها. إنها امرأة مخلصة ونظيفة. طببت جرحي وسهرت على راحتي بالأيام.
- أفعل يا «يودس»... حبا وكرامة.
- «ماري».
- نعم يا «يودس».
- لا شيء... شكرا لقدومك.

تحشرجت الكلمات في حلقه وكادت الدموع أن تقفز من عينيه، لكنه التفت إلى «وسيلة» قائلا:

- «وسيلة»... جهزي متاعك. سترحلين اليوم مع السيدة «ماري». ستسرين في منزلها.

هزت «وسيلة» رأسها لتقول أنها فهمت الرسالة. نظرت إلى «يودس» نظرة شكر لأنه حماها من البيع في سوق النخاسة أو الاغتصاب أو ربما أكثر من ذلك. أعدت حقيبتها وانطلقت مع «ماري» ووالدها.

ظل «يودس» ينظر إليهم حتى اختفوا عن الأنظار ثم انهار على مقعده وهو يقبل الورود ويصيح باكيا: «أحبك يا ماري... أحبك، افتحي لي بابك يا ماري، افتحي لي قلبك، اقبليني في حياتك، أنا العدم بدونك...

أنا الضياع.»

ضرب الحزن شرخا كبيرا في قلب طارق؛ يعود إلى البيت بعد انتهاء عمله فيعيش مع ذكريات شهر العسل الذي لم يكتمل. جفاه النوم ولازمه السهاد.

شاعت أخبار في الإسكندرية أن صفقات ستُبرم وشيكا بين الفرنجة والمماليك بشأن تبادل الأسرى. عاش طارق على هذا الأمل.

فعلا حضر وفد من البنادقة» يرأسه «نيكولو جيوستينيان».[٥٠٢] حين مثل في حضرة السلطان الأشرف شعبان قال لجلالته:

- عظمة السلطان. القبارصة يريدون التفاوض بشأن الأسرى.
- تقصد أن البابا قال لهم تفاوضوا. لا تستطيع الكنيسة فرض ضرائب جديدة فعادت تنشد حصتها من ريع التجارة.
- كلاهما يفضي إلى نفس الطريق.
- لن نتفاوض مع هؤلاء القتلة. هل جئت اليوم تتحدث باسمهم أم باسم البنادقة؟
- مولاي... العلاقة بين البندقية والإسكندرية لا يمكن أن تتأثر.
- الإسكندرية التي شارك الأدميرال «كارلو زينو» بثماني عشرة سفينة في تخريبها؟

- مولاي...»كارلو زينو» لا يمثل إلا نفسه. إنه يجوب بحر الروم كالقرصان . البحر فقط هو دولته التي يعترف بها.
- لكنه يعمل أيضا بالتجارة.
- مولاي. التجارة هي منتهى أملنا. إنها تسري في عروقنا نحن البنادقة، الضرائب الكنسية أثقلت ظهورنا، فقط التجارة يمكنها أن تنتشلنا من هذه الحالة.
- حسن أيها الرسول. سننظر في أمر عودة التجارة مع البندقية وسنبلغك بالقرار في القريب العاجل.

وصل أيضا رسل حاكم جنوة[٦٠٢] بقيادة «كاسانو سيجالا».[٧٠٢] قبل نزول الرسل إلى ميناء الإسكندرية طلبوا الأمان ورهائن يصعدون لسطح السفينة. جمع ابن عرام المساجين المسلمين، وألبسهم ثيابا حسنة، وأرسلهم إلى سفينة الجنويين، استأجر أيضا بعض النسوة والأطفال ليشيعوا الرهائن باكين كما لو كانوا أهلهم وذويهم.

حمل «كاسانو» رسالة للسلطان يعلن فيها حاكم جنوة تبرؤه من أفعال «بيير». أعاد صاحب جنوة أيضا ستين أسيرا كان ملك قبرص قد أهداهم له عقب الغزو. أكد في رسالته للسلطان أنه لم يكن يعرف وجهة الحملة، وأن الملك «بيير» غرر به، وأن من شارك من الجنويين إنما فعل ذلك

بمبادرة شخصية، وأنهم لا يمثلون سكان جنوة الذين يحترمون المماليك، ويحرصون على التجارة مع الإسكندرية. قبل السلطان اعتذار حاكم جنوة وعودة التجارة معه، وشكر له إعادة الأسرى.

وقف طارق ومئات من السكندريين في الميناء ينتظرون نزول الأسرى من سفينة الجنويين. دق قلب طارق بشدة وتعلق بالأمل. بدأ الأسرى في النزول وهم في تشوق لرؤية أهاليهم. تعالت الصيحات والزغاريد وانهمرت القبلات والأحضان. كان ممن عاد «حسن البياع». انطلق طارق عدوا نحوه وفي إثره عجمي:

- «حسن». هل رأيت «وسيلة»؟ هل جاءت معكم؟
- لا يا طارق. ليست في جنوة.
- إذن أين يمكن أن تكون يا حسن؟
- في مكان آخر غير جنوة. آسف يا صديقي.
- حمدا لله على سلامتك يا حسن.
- شكرا لك يا عجمي.
- كيف أسرت يا أخي؟
- حين هم القبارصة بقتلي في رباط ابن سلام ابتسمت.
- ابتسمت!
- نعم.

- لم؟!
- والله يا عجمي كأني رأيت الجنة.
- وبعد؟
- سألني أحدهم: «لماذا تضحك؟!» قلت: «لا أعرف.» قال: «احملوه إلى السفينة لنرى سبب ضحكه.»
- الضحك يُنجي إذن يا حسن.
- نعم. هاهي زوجتي وابناي. أستأذنكما إذن.
- تفضل. مع السلامة.

هرع حسن إلى حضن زوجته وعياله. ظل طارق ينظر إليه وقد امتلأت عيناه بالدموع. ربت عجمي على كتفه قائلا:

- هون عليك يا طارق.
- إحساس مميت يا عجمي. عقلي لا يتوقف عن تخيلها تارة في الأسر وتارة...
- وقد يجمع الله الشتيتين بعدما / يظنان كل الظن أن لا تلاقيا.[٨٠٢]

الفصل العاشر

مرت الأيام... جاءت سفينة إنجليزية تطلب الإذن بدخول ميناء الإسكندرية. سُمح لركابها بالنزول مجردين من السلاح. كان الوفد عبارة عن بعض أقارب «إدوارد إستير» جاءوا يفتدونه بالمال بعد أن كتبت لهم «إيزولدا». قابلهم ابن عرام، وتلقى عرضهم. أرادوا أن يتأكدوا أن أسيرهم موجود فعلا في الحبس بالإسكندرية.

اصطحبهم ابن عرام للمحبس. عندما فُتح باب الزنزانة نظر إليهم «إستير» دون أن يتحرك أو يتحدث. اندفعوا إليه يقبلونه ويعانقونه. طَير ابن عرام العرض المجزي للوزير «يلبغا» فوافق عليه.

ركب «إستير» السفينة قافلا إلى إنجلترا. أخذ ينظر إلى صليب «لوسي» المعلق في رقبته مندهشا. أحس أقاربه بأن تغيرا كبيرا قد طرأ عليه. أصبح قليل الكلام. هل تراه قد تعرض للتعذيب؟ هل فترة الحبس أثرت على قواه الذهنية؟ الحقيقة لا هذا ولا ذاك؛ لقد فقد الفارس الذاكرة حين ضربه العربي بقضيب حديدي غليظ على أم رأسه هوى بعدها إلى أسفل قنطرة الخليج. عاد «إدوارد» إلى «جاتكومبي» وقد نسى «لوسي» تماما، لكن صليبها ظل دائما في رقبته.

حل شهر الصوم على طارق. كم كان مؤلما عليه أن يتناول إفطاره بمفرده. كان قد تزوج وسيلة في شهر رمضان من العام المنصرم. نصحه أصدقاؤه أن يرجئ الزواج إلى العيد، لكنه صمم من باب «خير البر عاجله». يسرق القبلات والأحضان فتذكره وسيلة بأنهما في رمضان فيرتدع. يفطر بعد حمد الله على شفتيها ويأكل من رضابهما.

بدأ «جين مورفو» في التقرب من الملكة «إليانورا» أثناء غياب زوجها الملك «بيير» في أوروبا وانشغاله عنها بأكاليل النصر. امتدح جمالها الأخاذ. بدأت الملكة تعيره أذنيها. معروف أن أذن المرأة هي أقصر الطرق إلى قلبها. استثمر غيرتها فملأ أذنيها بأحاديث عن غراميات «بيير» التي لا تنقطع.

تعجب كيف ينظر «بيير» إلى غيرها! كانت هذه هي العبارة الوحيدة الصحيحة التي قالها، فإليانورا لم تكن فقط ملكة قبرص، بل ملكة جمال الكون بلا نازع؛ بيضاء حد الهوس، يتجمع الورد في أطراف أصابعها وكعبيها وخديها وأنفها الذي يحيط به نمش خفيف، شعرها أحمر بلون الحنة وعيناها تنكسر فيهما ألوان الطيف وشمس الأصيل، ممشوقة القد، طرية الملمس، يتنفس صدرها بحرية فتشعر أن رئتيها ونهديها شيء واحد.

أسرَّ «مورفو» للملكة بأن الملك بيير اتخذ «جوانا»،[102] أرملة السيد «جون دي مونتوليف»[103] عشيقة له، وأنها قد حملت منه. كاد عقل «إليانورا» أن يطير، أرسلت من يستوثق من الخبر فجاء الرد مؤيدا لكلام «مورفو».

قابلت الملكة «جوانا» بعد قداس يوم الأحد فانتحت بها خارج الكنيسة وهي تقول لها:

- أحسبك تعلمين يا «جوانا» أن من اعتاد أكل لحم الغزال يتوق أحيانا إلى لحم الدجاج، وأن من يتناول ثمرة مانجو كل يوم يحن إلى التين الشوكي، وأن من يألف النوم على ريش النعام لا يجد بأسا من أن يجرب النوم على القش؟
- ليس هذا ما قاله لي «بيير».
- تقصدين الملك «بيير».
- طلب مني أن أدعوه باسمه مجردا.
- وماذا قال لك؟
- قال لي إني أمتلك أرطب وأندى وأدفأ فرج في الوجود.
- حقا؟
- نعم.
- وماذا قال لك أيضا؟

- أشياء كثيرة عن شفتي وردفي ونهدي وفخذي.
- ألم يقل لك أيضا أنك مومس وفاجرة؟
- بلى قال ذلك؛ لأنه يحب أن نتبادل السباب والكلمات القبيحة أثناء المعاشرة.
- فإذا كنت كما نعتك فكيف يتأكد أن ما في بطنك هو له؟
- ليس لديه شك في ذلك؛ إنما أنا عاهرته هو فقط.

بعد مرور أسبوع على هذا الحديث استدعت الملكة «جوانا» إلى القصر. لبت الأخيرة الدعوة بسلامة نية. أخذت «إليانورا» تتفرس في بطن «جوانا» والغيرة تحرق قلبها؛ كانت الملكة قد قررت التخلص من الجنين ورتبت مع بعض النسوة فانقضضن على «جوانا» وأجهضنها بشكل وحشي، ثم ألقين بها خارج القصر.

قررت «إليانورا» الانتقام أيضا من «بيير»، وأن يكون الانتقام بنفس السلاح الذي طعنها به؛ نعم، بعد مرور فترة ليست طويلة على حادث الإجهاض كان «مورفو» في فراش «بيير» يضاجع زوجته. أحس «مورفو» بالنصر على «بيير». لقد لوث فراشه واخترق فرج الملكة، ومازال في جرابه الكثير.

خشيت الملكة «إليانورا» من أن يُفتضح أمرها مع «مورفو» فسارعت باستدعاء أدميرال «قبرص» المحبب للملك «جون دي موستري» لتشتكي له بيير وعلاقاته؛ ضربة استباقية لطالما برع فيها «بيير» نفسه وكأنها تُجهز الشهود على خيانة زوجها لوقت الحاجة في قادم الأيام. استمع لها الأدميرال ثم قال:

- سيدتي قدرك أن يحمل زوجك راية الصليب. يجب أن تتحمليه.
- وأنا من يتحملني؟!
- زوجك مثل الملك «ريتشارد قلب الأسد»؛ قالوا عنه إنه كان ابنا سيئا وملكا سيئا وزوجا سيئا، لكنه كان محاربا عظيما.
- تقارن «بيير» بريتشارد! إن الأخير ملاك حيال الأول. تعرف أنه حين خرج بالحملة الصليبية الثالثة دخل بخطيبته «برينجاريا»[٢١١] هنا في قبرص، أشعرها في فترة بسيطة بأنها ملكة العالم. أين أنا من هذا الإحساس؟!
- لكن علاقتهما تأزمت بعد ذلك.
- صحيح، لكن ريتشارد لم يكن زير نساء.
- مولاتي العبرة بالخواتيم. لقد ساءت علاقته بزوجته بعد ذلك.
- وهل هذا يختلف عن علاقتي ببيير؟!
- المُلك تبعة ثقيلة يا سيدتي.

- وهل النوم مع الساقطات هو ما يخفف هذا العبء أو يُهون هذه الحِمل؟!
- المشكلة ليست في النساء فقط؛ الملك يخسر فرسانه كل يوم نتيجة لحدته معهم. توتر علاقته بك يؤثر على علاقته بفرسانه؛ وأنت تعلمين يا مولاتي قبرص تحوي خليطا من الفرسان. أخشى أن يُصيبوه بمكروه.

عملت لوسي في تقديم الشراب بالحانة للمتوافدين على الميناء من كل صوب وحدب. شاهدها صياد اسمه «ليونالو مورميلينو»[٢١٢] من جزيرة «كورسيكا».[٣١٢] أُعجب بجمالها وبمسحة الحزن تلك في عينيها وشفتيها الحمراوين المنطبقتين دائما. حاول «ليونالو» التقرب منها، لكنها صدته. أفضى بولعه بها إلى «جابريلا»، زوجة صاحب الحانة. وعدته «جابريلا» أن تمهد له الطريق. قالت للوسي ذات مساء:

- هذا الصياد، «ليونالو».
- ما به؟
- معجب بك.
- هل سئمت مني؟
- تقولين ذلك وأنا أعتبرك ابنتي التي لم أنجبها.
- أنت تعرفين أني أنتظر «إستير».

- لكنه ليس هنا.
- سيعود.
- أرجو ذلك. شاهدت عبر السنين في هذا الميناء الملهوفين والثكالى واليتامى والذين فقدوا أعزاءهم وأحبابهم وحُرموا منهم. أشفق على شبابك الذي بدأ يذبل مع الصدمات والإحباطات التي تمرين بها؛ كلما رست سفينة تهرعين إلى الميناء ثم تعودين منكسة الرأس. إلى متى؟! لا بد أن تضعي حدا لهذا. ربما يكون ...
- لا...أرجوك لا تقولي ذلك. أشعر أنه حي. أحس بأنفاسه حول رقبتي. قالوا لي إنه فُقد في المعركة؛ وهذا يعني أنه أسر.
- أو... على أي حال «ليونالو» سيغادر غدا إلى «كورسيكا». سيعود بعد شهرين. معك وقت كاف للتفكير. أعرف هذا الشاب منذ سنوات. مسيحي طيب ومُخلص. عقله بسيط غير ملوث بسخافات هذا العالم. جيبه ممتلئ بالمال وشباكه متخمة بالأسماك لأن قلبه متعلق بحب المسيح الذي بارك السمك وكثره. لن تندمي على الاقتران به. سأبلغه بأنك ستردين عليه بعد شهرين. أليس كذلك؟ أليس كذلك يا «لوسي»؟

أطرقت «لوسي» مفكرة. كررت عليها «جابريلا» السؤال فأجابتها:

- أجل يا «جابريلا».

تعلقت «ماري» بوسيلة وأحبتها من كل قلبها. رأتها يوما تصلي فلم تغضب. صحيح أنها تحب الفروسية، لكنها لا تفهم ولا تستسيغ فكرة أن يتقاتل البشر ويذبح بعضهم بعضا من أجل إله هو في الأساس واحد ورحيم.

تعاطفت «ماري» مع «وسيلة» كثيرا حين حكت لها قصتها. وعدتها أنها ستساعدها على العودة للإسكندرية في الوقت المناسب، عاشت «وسيلة» على هذا الأمل. شعرت بحب «يودس» لماري. أخبرتها أن «يودس» قد رسم لها صورة يحتفظ بها في حجرته.. أكدت لها «ماري» أنها رأت الصورة حين زارته في المرة الأخيرة، وأنها متيقنة من حبه، لكن «يودس» لا يعدو أن يكون أخا لها.

عندما عاد «بيير» إلى قبرص أسر له أحد خدامه وهو «جون فيسكونتي»[٤٢] بما فعلته الملكة أثناء غيابه مع «جوانا» و«مورفو». كاد «بيير» أن يجن. صحيح أنه يحب «إليانورا»؛ وصحيح أنها خلصته من جنين غير شرعي قد يسبب له المتاعب، لكن ما اقترفته فاق الحد. أدرك «بيير» أن «مورفو» ينتقم منه بسبب إهانته له أثناء الحملة.

رفع «بيير» الأمر للكنيسة متهما زوجته بالزنا كما لو كانت هذه الجريمة

حلالا للرجال ومحرمة فقط على النساء. كان هذا الاتهام هو القشة التي قصمت ظهر البعير، وشرخت العلاقة بين الملك وزوجته «إليانورا». تم القبض على «جين دي مورفو» وإيداعه الحبس. استغل أعضاء من عائلة الملكة في إقليم «الأراجون»[٥١٢] بأسبانيا نفوذهم وهددوا الكنيسة بالتوقف عن مناوئة المسلمين في الأندلس فأصدرت مرسوما ببراءة الملكة. أفرج عن «مورفو» بالتبعية وزُج بالواشي «جون فيسكونتي» في السجن بدلا منه.

تعرضت قبرص لمشاكل اقتصادية وضغوط من الجزر والممالك الأوروبية لعودة التجارة وفتح الأماكن المقدسة أمام الحجيج. حضر وفد من الكتاليين[٦١٢] بزعامة «بول دي بيلونيا»[٧١٢] للتفاوض بالنيابة عن القبارصة من أجل عودة الأسرى المسلمين. هذه المرة أظهر السلطان بعض المرونة، وأرسل معهم مندوبين إلى قبرص.[٨١٢]

كان الأسرى «السكندريون» قد تفرقوا في كل مكان، حتى أن عددا كبيرا منهم قد عبر جبال الألب. قيل إن الوليد الفرنساوي الذي يكون في أذنه قرط أمه من المأسورات في الإسكندرية. في النهاية بعث «بيير» مع «بول دي بيلونيا» ورسولي السلطان بعض الأسرى لديه لم يتجاوز عددهم الخمسين.

ومرة أخرى يمر طارق بهذه التجربة المريرة. يقف في الميناء يعد الأسرى ممنيا نفسه أن «وسيلة» ستكون رقم ستة وأربعين أو تسعة وأربعين أو حتى خمسين، لكن دون جدوى. قرر طارق أن يخرج من سلبية انتظاره إلى القيام بعمل إيجابي. ذهب لمقابلة الريس إبراهيم التازي ليبث له شجونه:

- اسمع يا طارق... علمت أن السلطان قادم إلى الإسكندرية ليتفقد التحصينات التي تمت بعد الغزو والسفن الجديدة التي بُنيت. وعدني «بكتمر» الذي تولى نيابة الثغر خلفا لابن عرام أن أقابله. سأعرض عليه أن أنطلق بقطعة أو قطعتين منها لاستنقاذ الأسرى.
- عدني يا ريس تازي أن تأخذني معك.
- اعتبر الموضوع منتهيا يا طارق.

بعد مقابلة السلطان في الثغر وأخذ الإذن منه انطلق الريس إبراهيم التازي من الإسكندرية ومعه مجموعة من المقاتلين بينهم طارق كما وعده. هاجم بعض الجزر الواقعة تحت سلطان صاحب قبرص وحصل على المغانم والأسرى. لم يستطع أن ينزل على شواطئ جزيرة قبرص نفسها لأن المد كان عاليا ولأن استحكاماتها كانت قوية فقرر العودة للإسكندرية.

رفض طارق العودة مع التازي. طلب منه أن يُنزله في أي مكان بالقرب من جزيرة قبرص، وأن يتركه لقدره. فعلا أنزله التازي بالقرب من «بافوس» فسبح إلى الشاطئ. أعطاه ثيابا قبرصية لأحد الأسرى وأوصاه أن يدعي بأنه أصم وأبكم. نزل طارق الجزيرة وليس في بؤجته سوى رداء وإزار الإحرام. كان قد حج واعتمر بهما وتمنى على الله أن يرزقه الشهادة في سبيله فيُكفن فيهما.

تزوجت أم السلطان، «خوند بركة» من الأمير «إلجاي يوسف». كان السلطان قد سجنه في الإسكندرية مع آخرين بتهمة التمرد. عندما أفرج عنهم السلطان توجه «إلجاي» إلى القاهرة. صادف ذلك خروج «المحمل» والحجيج، ومنهم أم السلطان. فُتن بجمالها ومظاهر العز عليها. شجعه أترابه على الاقتران بها. قالوا له إن وزير السلطان، «يلبغا» تزوج من أرملة السلطان الناصر حسن.[٩١٢] فعلا تقدم لها «إلجاي» فقبلت به. تألم السلطان الأشرف شعبان كثيرا من هذا الأمر. كره زوج أمه بشدة، وجد السلوى عن فقد أمه في مغنية كبيرة في السن نسبيا كان يتردد عليها اسمها «آمنة بنت عبد الله»، امرأة «ابن المستوفي المشتولي».

خرج «مورفو» من السجن مصمما على بدء الجولة الثانية ضد «بيير». استطاع مع «جيمس دي نورس» مقابلة «فيليب إيبلين».

أفلح أيضا في تجنيد خادم الملك «جون جوراب» الذي كان «بيير» يهينه كثيرا ويتوعده دائما بقطع رأسه.

خدمت الظروف مجموعة المتآمرين على الملك بشكل كبير فقد انضم لهم «هنري دي جبليت»، والد «ماري»؛ ما حدث أن ولي العهد[٣٣] قد أعجب بكلبي صيد عند «جيمس»[١٢٢] ابن السيد «هنري». طلب الملك من الأخير إرسال الكلبين لولي العهد، لكنه رفض.

حيال هذا الرفض والتعنت، أزاح الملك «هنري جبليت» من منصبه ككونت لنيقوسية وصادر أملاكه وحبسه لفترة، بعث أيضا بجيمس وأخته «ماري» للحفر في حصن برج «مارجريتا».[٢٢٢] كذلك أمر الملك كونت نيقوسية الجديد، «جون دي نوفيل»[٣٢٢] بإساءة معاملة «ماري».

أثناء العمل في الحفر كانت «ماري» ترفع تنورتها. حاولت «وسيلة» التي ذهبت طواعية للحفر معها أن تستر فخذيها حين يمر عليها النبلاء، لكنها كانت تأبى قائلة: «نساء مثلنا فلا أستر نفسي منهم.» الأمر الذي أجج غضب الفرسان على «بيير». استدعاها «نوفيل» قائلا:

- تقولين إن نبلاء نيقوسية مثل الدجاج؟!
- لم أقل ذلك.

- إذن ماذا قلت؟
- قلت إنهم دجاج بدون استخدام أداة التشبيه.
- حسن... سأثبت لك أن هناك بينهم أيضا ديوك.

وضع سبابته حول طوق ثوبها ثم شده لأسفل كاشفا عن شق ثدييها. ما إن رآه حتى تسمر مكانه من شدة الإعجاب، لكنه أفاق على صفعة هوت بها «ماري» على خده. حاول الاعتداء عليها، فسحبت سيفه منه ووضعته على حنجرته قائلة:

- إذا فكرت في أن تلمس طرف ثوبي ثانية فليس لك إلا هذا.

ظل «نوفيل» ينظر إلى «ماري» بعد أن ألقت بسيفه على الأرض ثم سارت نحو الباب في شموخ وكبرياء. بالرغم من أن السيف لم يخترق حنجرته، لكن سيفا آخر في هذه اللحظة الفارقة كان قد اخترق قلبه.

ذهب «يودس» لمقابلة الملك «بيير». استقبله الملك أحسن استقبال، ثم قال له:

- ماذا يمكنني أن أقدمه لك أيها الفارس النبيل؟
- مولاي... تذكر جلالتك أن لدي أمنية ثالثة قد وعدتني بتحقيقها.
- تمنَّ عليّ، لكن لا تحدثني عن قريبك «هنري جبليت».

- لا يا مولاي بل عن ابنته «ماري» وأخيها الطفل؛ إن إهانة نسائنا وأطفالنا إهانة لجزيرتنا يا مولاي.
- تحبها؟
- حب من غير أمل.

قالها «يودس» وهو ينظر إلى ذراعه المبتور. أحس «بيير» بالخجل فقرر الموافقة. انطلق «يودس» بفرسه ومتاعه إلى «المارجريتا». أوقف الحصان ونزل متوجها إلى «ماري». قابلته «وسيلة» قائلة:

- سيدي «يودس».
- أعتذر إليك يا «وسيلة»؛ كان يجب أن أعيدك إلى الشاطئ. سامحيني.
- أسامحك من كل قلبي.

وقف «يودس» ينظر إلى فخذي «ماري» البضين الملفوفين. بادرته «ماري»:

- إلام تنظر أيها الولد الشقي؟
- إلى هذين الفخذين اللذين كانا يسبقاني.
- كانا.
- اسمعي يا «ماري»... قابلت الملك اليوم. يمكنك العودة

لقصرك أنت وجيمس.

- إياك أن تكون قد استجديته.
- استجديته! في رقبته دين لي، ألا تعرفين ذلك؟!
- بلى.
- هذه موافقة كتابية منه.
- شكرا لك يا «يودس». أنت منقذي.
- وسأظل دوما يا «ماري» حتى لو كنت بعيدا منك.
- بعيدا مني! إلى أين أنت ذاهب يا «يودس»؟
- إلى كنيسة القديس «لازاريوس»[٤٢] في «لارناكا».
- ذاك الذي بعثه يسوع من مرقده؟
- نعم... ربما استطعت أنا أيضا أن أبعث من جديد.
- لكنه كان ميتا يا «يودس»، أما أنت فحي.
- يُخيَّل لك فقط... الوداع يا «ماري».

الوداع يا «يودس».

قبلته «ماري» على خده، وأسرعت بجيمس ووسيلة نحو ضيعة والدها. وضع «يودس» أنامله على خده حيث قبلته «ماري». لو أن معه منديل «فيرونكا» الذي شف وجه المسيح لطبع هذه القبلة عليه وعاش على ذكراها حتى آخر نفس في صدره.

بحث طارق عن «وسيلة» في «بافوس» فلم يجدها. جلس على الصخور أمام البحر يشكي إليه حاله. من بين تلك الصخور خرجت «أفروديت» يوما ما. تمنى لو خرجت له «وسيلة» من البحر. قرر أن يتوجه إلى «ليماسول»، وهناك لم يعثر لها على أثر، حينها عزم على شد الرحال إلى «لارناكا». حين وصلها كان قد أصابه الإعياء فقرر الإقامة فيها لبعض الوقت. احتاج إلى النقود كي يشتري طعاما يتقوت به.

عمل في إحدى الملاحات على «بحيرة الملح»، وأقام في بناية صغيرة مهجورة بجوار قبور عجيبة متناثرة ضربها البحر فتصدعت. دخل في حالة صوفية عجيبة بعد أن كان مناوئا لهذا الميل. بدأ يناجي الله بين أحضان الطبيعة واستغنى بعشقه سبحانه عن البشر.

قررت «لوسي» بعد شهرين أن تتزوج الصياد الكورسكي، «ليونالو». تزوجا في «فاماجوستا». دخل بها في الحانة. تذكرت تلك الحانة في لندن التي أفضى فيها «إستير» بشوقه وولعه لها. شعرت بالانزعاج بعض الشيء وألح عليها طيف «إستير»، لكن «ليونالو» كان أيضا رقيقا معها.

أبحرا معا في قاربه إلى «كورسكا». ظلت عيناها معلقتين على الميناء وراحت تجتر ذكرياتها وأحاديثها مع «إستير». كادت أن تلقي بنفسها من القارب وتسبح عائدة إلى الميناء، لكن منطق العقل كان أقوى من صوت الحب فجلست في القارب تراقب زوجها وهو يجمع شباكه. رحلت

بجسدها إلى «كورسكا»، أما روحها فعادت إلى إنجلترا لتُستنسخ من جديد، وتحتضن جسد «إستير» الذي رقد أخيرا في كنيسة بلدته.[٥٢٢]

بعد عفو الملك عن «ماري» زارها «نوفيل» في قصر أبيها. كادت أن تطرده، لكنه جثا على ركبتيه طالبا منها أن تتزوجه. قال لها إنه معجب بشجاعتها وعفتها؛ وأنه أدرك فعلا أنه كان دجاجة حين قبل أن ينفذ تعليمات الملك.

تذكرت «ماري» في هذه اللحظة «يودس»، الشخص الوحيد الذي وقف بجوارها، لكنها عادت تنظر إلى «نوفيل» في ثيابه اللامعة. تذكرت نظرة الاشتهاء في عينيه حين رأى مفرق نهديها. وافقت «ماري» على عرض الزواج شريطة أن يساعد «نوفيل» خادمتها «وسيلة» على العودة لزوجها في الإسكندرية.

اجتمعت النسوة عشية زفاف «ماري». طلبن من «وسيلة» أن ترقص لهن رقصة شرقية. رقصت «وسيلة» كالطير المذبوح من الألم. انهمرت دموعها وهي تتذكر حين كانت ترقص لطارق. أخذتها «ماري» في حضنها ووشوشتها في أذنيها أن «نوفيل» سيعيدها إلى الإسكندرية. في لحظة واحدة أشرق وجهها بالسعادة، وانبرت ترقص كما لم ترقص من قبل.

أبر «نوفيل» بوعده الذي قطعه على نفسه لماري؛ وضع «وسيلة» على سفينة جنوية متجهة إلى الإسكندرية للتجارة. عادت «وسيلة» لتعرف أن «طارق على قيد الحياة، وأنه قد ترك الإسكندرية بحثا عنها في قبرص وأوروبا بأسرها. ظلت تنتظر عودته كل يوم بجوار الفنار الذي غدا رمزا لقصص الحب المحبطة منذ أن فقد مصممه، «سوستتراتوس» حبيبته وخطيبته، « أتينا» بالقرب من الصخور التي تحيط به.

في طريقه إلى الكنيسة مر «يودس» بطارق، طلب منه بعض الماء. أصدر طارق أصواتا بفمه تنبئ أنه لا يسمع ولا يتحدث. لجأ «يودس» للغة الإشارة للتعبير عن الماء، فهم طارق فناوله قربته، لاحظ طارق أن ذراع محدثه مقطوعة فساعده على شرب الماء. نظر إليه «يودس» ممتنا ثم مضى.

علم طارق أن القبور التي تنتشر في ثنايا المكان وحشاياه إنما هي للمسلمين الذين شاركوا في فتح قبرص في عهد الخليفة عثمان بن عفان. كان يجب أن ينتبه لذلك من طريقة الدفن وعدم وجود شواهد. لا بد أن إحداها للصحابية «أم حرام» الأنصارية رضي الله عنها. ربما كانت مدفونة تحت البناية التي يسكنها. ابتسم لأول مرة منذ شهور عديدة وهو يردد في سره: «أنت منهم... أنت منهم.»[٦٢٢]

في عام ١٣٦٩م، تجمع الفرسان الناقمون على الملك «بيير» فاقتحموا جناح الملك، دخلوا عليه فوجدوه مع عشيقته «الليدي «إيشيف،[٢٢٧] وكانت امرأة متزوجة. طعنه كل من «فيليب إيبلين» و»هنري دي جيبلت»،[٢٢٨] بينما دخل الخادم «جون جوراب»[٢٢٩] فحز رأسه، وتبعه «جيمس دي نورس» الذي قام بتشويه جسده.

قُتل الوزير «يلبغا» على يد مماليكه لأنه كان يعذبهم ويقطع أنوفهم وآذانهم. بعد وفاة أم السلطان، اندلعت مشاحنات بين السلطان الأشرف شعبان» و»إلجاي يوسف» الذي أصبح قائد الجيش. كان «إلجاي» قد تمادى في أخذ الرشاوي، كما أنه طالب السلطان بتركة زوجته. انتهت المعركة بينهما بغرق «إلجاي» في النيل.

قبض المتآمرون على السلطان الأشرف شعبان عام ١٣٧٦ م. كان مختبئا في ملابس النساء عند آمنة زوجة المشتولي في حارة «الجودرية»، هدد المقتحمون آمنة بالقتل، لكن البجعة العجوز رفضت أن تصدح بالتغريدة الأخيرة فباعت السلطان. اقتادوه إلى القلعة حيث خنقه «جاركس شاد»، من أتباع «إلجاي يوسف». دفن الأشرف شعبان بجوار أمه، المرأة الوحيدة التي أحبها.

عام ١٤٢٦م، وبعد مرور واحد وستين عاما على غزوة الإسكندرية استولى السلطان «برسباي» على جزيرة قبرص وأسقط حكم عائلة «لوزينيان». أُجلِسَ الملك «جانوس لوزينيان»[٢٣٠] وهو مكبل بالحديد على بغل أعرج طاف به القاهرة، والناس يهتفون ويصيحون: «يا لثارات الإسكندرية.»

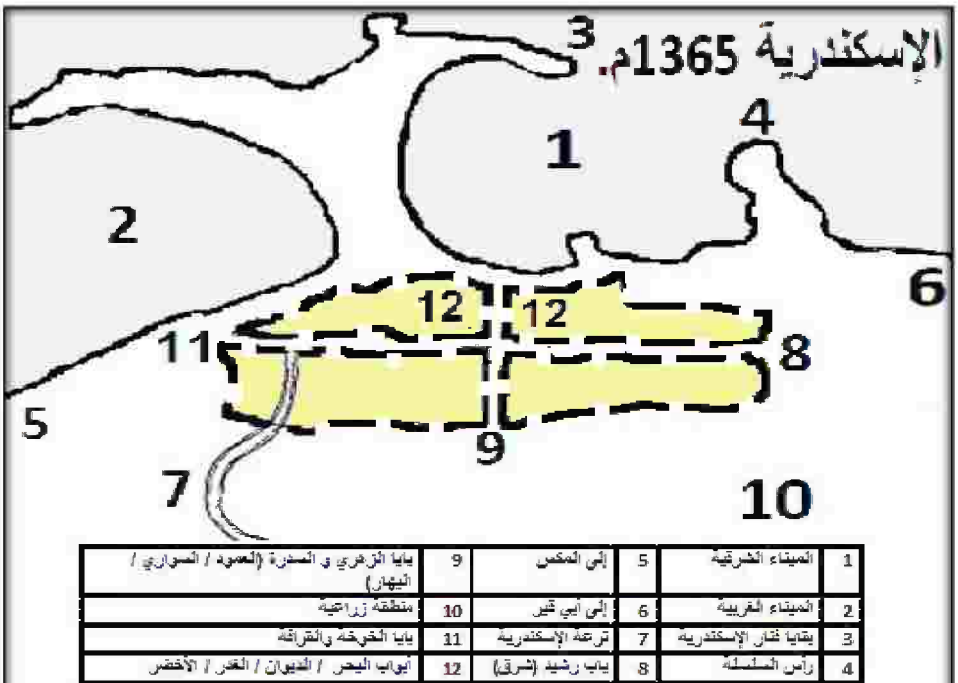

1	الميناء الشرقية	5	إلى المكس	9	بايا الزفري و السدرة (العمود / السواري / النهار)
2	الميناء الغربية	6	إلى أبي قير	10	منطقه زراعيه
3	يقايا فنار الإسكندريه	7	ترعة الإسكندريه	11	بايا الخرخه والقراقة
4	رأس المسلسله	8	باب رشيد (شرق)	12	أبواب البحر / الديوان / الغر / الأخضر

Cyprus
Kyrenia
كارينا
Nicosia
نيقوسية
Famagusta
فاماجوستا
Larnaca
لارناكا
ليماسول
Limassol
بافوس
Paphos
قبرص

أهم المراجع التاريخية للرواية

- ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.
- د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢.
- النويري السكندري (محمد بن قاسم بن محمد)، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية سنة سبع وستين وسبعمائة.
- د. سهير محمد إبراهيم نعينع، الحروب الصليبية المتأخرة: حملة بطرس الأول لوسنيان الصليبية على الإسكندرية (١٣٦٥ م. / ٧٦٧هـ.)، «القاهرة»، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٢.

- **Cecily Gould, A Tapestry of Time, or Effigy of**
- **Love, New York, Writers Club Press, 2001.**
- **Guillaume de Machaut (1300 – 1375), La Prise d' Alexandrie.**
- **Leontios mahkairas, Recital Concerning the Sweet Land of Cyprus.**

د / محمد السيد علي عزب

- مدير معهد اللغات ق م بالإسكندرية
- أستاذ الأدب الإنجليزي «المنتدب» بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.
- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- **Brush upon your English**، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- **Enhance your English Vocabulary**، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٨.
- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، ٢٠٠٩.
- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا «ترجمة»، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير ٢٠١٠.
- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- اللغة الانجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، ٢٠١٠.

- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، ٢٠١٠.

- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١١.

- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١١.

- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، ١٩٤٢-١٩٤٥، آرائهم وموقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، ٢٠١١.

- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوي للنشر، بيروت، ٢٠١٢.

- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١٢.

- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، «القاهرة»، ٢٠١٢.

- كيف تُزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- أمس انتهينا (رواية)، دار مير، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- الحياة في البلاط الملكي المصري (للمؤرخ الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة (مع مي موافي)، دار ليليت، الإسكندرية، ٢٠١٣.

- ١ شاعر إنجليزي، ١٣٤٣ - ١٣٧٥م.
- ٢ من سفر الجامعة، الإصحاح الثالث.
- ٣ الكلمات لابن بطوطة حين نزل الإسكندرية عام ٧٢٥هـ.
- ٤ الكلمات لعمر بن عبد العزيز في وصف الإسكندرية.
- ٥ أمير عشرة.
- ٦ بن علي زين العابدين بن الحسين.
- ٧ الشلالات.
- ٨ Andrea Venier.
- ٩ أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الإسكندراني فخر الدين بن الربعي، توفي في ربيع الآخر عام ٧٦٧هـ.
- ١٠ ١٣٦٣ - ١٣٦٩م، البابا الخامس والثمانين للكنيسة القبطية.
- ١١ أحمد بن محمد بن الخمسين.
- ١٢ Marco Cornaro.
- ١٣ الملك الأشرف ناصر الدين شعبان (الثاني) بن الحسين بن الملك الناصر محمد ابن المنصور قلاوون، سلطان الديار المصرية والشامية والحجاز وغيرهم، ١٣٦٣ - ١٣٧٦م.
- ١٤ يوسف، ٩٩.
- ١٥ أنشأت عام ٣٣٢ قبل الميلاد.
- ١٦ أبو يحيى زكريا ابن اللحياني. توفي عام ١٣٢٧م.
- ١٧ محمد ابن المنصور قلاوون.

- ١٨ Iyahu Hanavi، ١٣٥٤م. يقع حاليا في شارع النبي دانيال.
- ١٩ سُمي بذلك على الأرجح لأن خُمس البضاعة القادمة كانت تُحصل كمكوس.
- ٢٠ كان يقع في الطريق «الكانوبي» إلى الشرق في اتجاه باب "رشيد"؛ وليس له وجود الآن.
- ٢١ وافق السلطان الأشرف شعبان على هذا الأمر عام ٧٧٣هـ.
- ٢٢ ٨٢٨م.
- ٢٣ ٤٥١م، اختلفوا خلاله في قضية اللاهوت والناسوت.
- ٢٤ ركن الدين الكركي.
- ٢٥ عام ٤٤ هجرية
- ٢٦ خلال الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع، ملك فرنسا، ١٢٥٠م.
- ٢٧ الأنبياء، ١٠٥.
- ٢٨ هود، ٩١.
- ٢٩ ٢٠ ق.م - ٥٠م.
- ٣٠ حكم من ٣٧ - ٤١م.
- ٣١ ٥٧٧ - ٦٦٠هـ.
- ٣٢ الحشاشون الإسماعيليون في الشام.
- ٣٣ قضاء فصل الربيع على ضفاف النيل في قرى الشمال.
- ٣٤ العطارين.
- ٣٥ عُرف أيضا بالجامع العتيق أو «مسجد السبعين» نسبة إلى السبعين حَبرا الذين ترجموا التوراة من العبرية إلى الرومية وأقاموا في تلك البقعة في عهد بطليموس الأول

عام ٢٨٠ قبل الميلاد. وأغلب الظن أن هذا الجامع لم يكن موجودا في عام ١٣٦٥م.

- ٣٦ الأنبا رويس.
- ٣٧ توفي ١٣٠٩م.
- ٣٨ في رجب ٦٥٩هـ، يونيو ١٢٦١م.
- ٣٩ توفي في ربيع الآخر، ٧٦٧هـ.
- ٤٠ عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن سليمان بن جعفر بن يحيى بن حسين الإسكندراني الدماميني (٧٠٥هـ - ٧٩٤هـ).
- ٤١ محمد قاسم النويري السكندري.
- ٤٢ صاحب التفسير المشهور وكتاب «البداية والنهاية». توفى ١٣٧٣م.
- ٤٣ المتوكل على الله أبو عبد الله محمد (١٣٦٢ - ١٣٧٧م)
- ٤٤ كان يُدعى «الأتابك».
- ٤٥ ولد عام ٧٥٤هـ وتولى عام ٧٦٤هـ، ومع قدوم الفرنجة كان ابن اثني عشر أو ثلاثة عشر.
- ٤٦ بركة خاتون بنت عبد الله المولدة. كانت امرأة جميلة وخيرة. شجعت ابنها على عمارة الحرم المكي. أنشأت مدرسة وجامع «أم السلطان». تزوجت بعد وفاة والد السلطان الأشرف شعبان من الأمير «إلجاي "يوسف""».
- ٤٧ أنشأه السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون. بدأ البناء في سنة ١٣٥٦ ميلادية واكتمل بعدها بسبع سنوات في ١٣٦٣.
- ٤٨ ١٢١٢م.
- ٤٩ Stephen de Colyes.

- ٥٠ Saint Denis.
- ٥١ Hugo Ferreus & William Porcus.
- ٥٢ جامعة «فيينا». كان المجمع الكنسي الذي عقد في «فيينا» عام ١٣١٢ للميلاد أوصى بتعلم اللغة العربية في أوروبا.
- ٥٣ شارع فؤاد حاليا على الأرجح.
- ٥٤ حلوى من السكر.
- ٥٥ النسيج.
- ٥٦ الغني بالله محمد الخامس.
- ٥٧ Castilla.
- ٥٨ بنته فاطمة الفهرية بكل ما تملك عام ٨٥٩م.
- ٥٩ ٧٦٤هـ.
- ٦٠ أسسه الشيخ «أبو عبد الله محمد بن سلام» خارج باب البحر بشبه جزيرة المنار قبل واقعة القبارصة بأكثر من سنة.
- ٦١ أبو عبد الله محمد ابن سلام.
- ٦٢ الأنفال، ٦٠.
- ٦٣ الأنفال، ١٧.
- ٦٤ ١٢٩١م.
- ٦٥ ١١٦٧، ١٢٠٢، ١٢٥٠م.
- ٦٦ البيت لجمال الدين يحيى ابن مطروح.
- ٦٧ الريكونكويستا.

- ٦٨ ١٠٨٥، ١١١٩، ١٢٣٦، ١٢٢٨م.
- ٦٩ الأبيات لأبي البقاء الرندي(١٢٠٤ - ١٢٨٥م).
- ٧٠ تقي الدين ابن تيمية، قدم الإسكندرية عام ٧٠٩هـ؛ وأحبه أهل الثغر.
- ٧١ ١٢٩٢م.
- ٧٢ أبو عبد الله الشاطبي، توفى ١٣٦٠م، وفي الإسكندرية الآن منطقة تحمل اسمه.
- ٧٣ أبو عبد الله محمد بن "يوسف".
- ٧٤ http://www.thehistoryblog.com/archives/٢٠٨٠٥.
- ٧٥ "زهرة العريش في تحريم الحشيش".
- ٧٦ سور الإسكندرية.
- ٧٧ منطقة ضحلة المياه ملاصقة لسور المنار.
- ٧٨ ٥٨٧ - ٦٦٢هـ.
- ٧٩ شيخ رماة قاعة القرافة.
- ٨٠ قابله ابن بطوطة أثناء توقفه بالإسكندرية، وتوفى عام ٧٣٢هـ.
- ٨١ افتتاحية بردة البوصيري. توفى ١٢٩٥ ميلادية بالإسكندرية.
- ٨٢ سُميت بذلك لأنها كانت تقع بين الميناءين: الشرقي والغربي.
- ٨٣ بدأ عام ١٣٤٦م، وعرف في أوروبا بالموت الأسود Black Death.
- ٨٤ بلدة بصعيد مصر ينتسب إليها النويري.
- ٨٥ سكان مدينة «بيزا» الإيطالية.
- ٨٦ Pierre Lusignans، ١٣٢٨ - ١٣٦٩م.

- ٨٧ أنواع متعددة من السفن في ذاك الوقت.
- ٨٨ الأعراف، ٥٦.
- ٨٩ هود، ٤٢.
- ٩٠ البقرة، ٥٧.
- ٩١ ٦٤٧ ميلادية.
- ٩٢ ٧٤٨، ٧٧٥، ٨٠٠، ٨٠٦م.
- ٩٣ العنكبوت، ٦٥.
- ٩٤ Percival de Cologne، من مقاطعة «كولونيا».
- ٩٥ Guy Lusignan.
- ٩٦ Richard, the Lionheart، ١١٥٧ - ١١٩٩م.
- ٩٧ Hugh IV، حكم من ١٣٢٤ - ١٣٥٩م.
- ٩٨ Kerynia.
- ٩٩ سُمي أيضا بخليج الناصر أو «الخليج الناصري». تحمل هذه الترعة المياه العذبة إلى الإسكندرية. أعيد حفرها في العصور الحديثة وتُعرف الآن بقنال المحمودية.
- ١٠٠ Philippe de Meziers.
- ١٠١ Peter Thomas.
- ١٠٢ Count of Roukha (Edessa), John de Morphou.
- ١٠٣ John de Moustry.
- ١٠٤ Edward III.
- ١٠٥ استولى عليها عماد الدين زنكي عام ١١٤٤م.

- ١٠٦ Jacques Lambert.
- ١٠٧ Carlo Zeno، ١٣٣٣ – ١٤١٨م.
- ١٠٨ كلمة أطلقها الصليبيون على المسلمين وتعني «الكفار»
- ١٠٩ ١ كور ١١/٢٣-٢٥.
- ١١٠ متى ٥ : ١٣-١٤.
- ١١١ Ferlino d' Airsaca.
- ١١٢ يُدعون أيضا بفرسان المعبد أو "القديس يوحنا".
- ١١٣ Philip IV.
- ١١٤ ١٣١٤م.
- ١١٥ Jacques de Molay.
- ١١٦ Raymond Berenger.
- ١١٧ Helios.
- ١١٨ Rhode.
- ١١٩ Nicholas Sabraham، ١٣٢٥ – ١٣٩٩.
- ١٢٠ Sir Edward Charles Estur.
- ١٢١ Lucy Lightfoot.
- ١٢٢ حرب المائة عام The Hundred Years War من ١٣٣٧ إلى ١٤٥٠م.
- ١٢٣ Henry Sinclair، كان سفيرا لإنجلترا في كوبنهاجن وقابله «فيليب دي ميزيير» هناك.
- ١٢٤ Urban V، تولى البابوية عام ١٣٦٢.

- ١٢٥ Avignon، أقام بها ما يعرف بالبابوات المزيفين.
- ١٢٦ Clement V، نقل البابوية عام ١٣٠٩م.
- ١٢٧ نجح في ذلك عام ١٣٦٧م.
- ١٢٨ Urban II، ١٠٤٢ - ١٠٩٩م.
- ١٢٩ Peter, the Hermit، ١٠٥٠ - ١١١٥م.
- ١٣٠ من الذين كتبوا عن هذه الحملة أيضا «فرانسيس بيترارك» Francis Petrarch، ١٣٠٤ - ١٣٧٤م.
- ١٣١ Frederic Zolerne.
- ١٣٢ Louis II, Duke of Bourbon.
- ١٣٣ Jean de Grandville.
- ١٣٤ المقصود: «هاجر»، أم إسماعيل عليه السلام.
- ١٣٥ Baldwin I، الملك اللاتيني الأول لأورشليم، ١٠٥٨ - ١١١٨م.
- ١٣٦ Bohemond I ، ١٠٥٨ - ١١١١م. أول ملك لاتيني لإنطاكية.
- ١٣٧ Order of the Sword.
- ١٣٨ Guillaume VI, Martel de Basqueville.
- ١٣٩ Charles Martel, Duke of Aquitaine، ٦٨٨ - ٧٤١م، وهو جد الملك "شارلمان" Charlemagne.
- ١٤٠ Tours-Poitiers، بلاط الشهداء، ٧٣٢م. والقائد المسلم هو «عبد الرحمن الغافقي».
- ١٤١ Goucher de Chatillion.

- ١٤٢ Renaud de Chatillon.
- ١٤٣ Florin.
- ١٤٤ James de Nores.
- ١٤٥ ١١٩٧م.
- ١٤٦ عاش «جي» في مقاطعة «أكتين» Aquitaine، وكانت ملكا لأم الملك «ريتشارد قلب الأسد»، والأخير هو من قام بنفيه.
- ١٤٧ Eleanora of Aragon – Gandia.
- ١٤٨ Phillip Ibelin.
- ١٤٩ Alix of Ibelin.
- ١٥٠ Crambousa.
- ١٥١ Vitat Petrus Rex Contra Saracenos Infideles.
- ١٥٢ حسن بن أحمد بن أنوشروان الرازي الحنفي أبو الفضائل حسام الدين. ولد في ٣٦١هـ. ولي قضاء مالطا عشرين سنة ثم دخل مصر فولي قضاءها في عهد «حسام الدين لاجين» ثم ولي قضاء الشام. فُقد في واقعة «غازان» فبيع للفرنج وحُبس ب"قبرص". توفي بعد عام ٧٣٥ هـ.
- ١٥٣ "جيوفاني بوكاشيو" Giovanni Boccaccio، ١٣١٣ – ١٣٧٥م.
- ١٥٤ زوجة «بيير" الأولى هي "إيشيف دي مونتفورت" Eschive de Montfort. أنجب منها ابنة تحمل نفس اسم والدتها، لكنها ماتت صغيرة.
- ١٥٥ Edward Estur.
- ١٥٦ Marc Antoine.

- ١٥٧ Eudes Giblet.
- ١٥٨ Gatcombe, Isle of Wight.
- ١٥٩ Hampshire.
- ١٦٠ Carisbrooke Castle.
- ١٦١ Edward Woodstock، من أهم أبطال «حرب المائة عام» بين إنجلترا وفرنسا. أُطلق عليه في القرن السادس عشر «الأمير الأسود» The Black Prince.
- ١٦٢ Humphry de Bohun.
- ١٦٣ Mary Giblet.
- ١٦٤ متى، ٢٦:٥٢.
- ١٦٥ قيلت في مدينة «أريحا»، يوشع ٦:٢١.
- ١٦٦ الإبراهيمية.
- ١٦٧ السيدة مارية القبطية.
- ١٦٨ نيقوسية، ٣٢٥م.
- ١٦٩ Jean Lascaris Calopherus.
- ١٧٠ Raymond de la Pradele، وهو من تولى مراسم جنازة الملك «بيير» فيما بعد
- ١٧١ Guido da Bagnolo di Reggio.
- ١٧٢ Guy d' Ibelin، وهو من توج الملك «بيير» من قبل.
- ١٧٣ John Grosswarden.
- ١٧٤ Alain de Champagne.

- ١٧٥ Jean de Chateaumorand.
- ١٧٦ Gadifer Funfkirchen.
- ١٧٧ Nicolas Gara.
- ١٧٨ Guillaume de Tremouille & Philippe de Tremouille.
- ١٧٩ Jean de Vienne & Jacques de Vienne.
- ١٨٠ تعود تسمية «"قبرص"" إلى شهرتها القديمة بالنحاس copper, cuprum, kypros, Cypres.
- ١٨١ Sir Robert Hales، ١٣٢٥ - ١٣٨١م. أعدم في ١٤ يونيو عام ١٣٨١ في "تور هيل" Tower Hill خلال «تمرد الفلاحين» Peasants' Revolt.
- ١٨٢ Lord Grey de Codnor.
- ١٨٣ Sir Stephen Scrope.
- ١٨٤ Sir John de Sur.
- ١٨٥ William Middleton.
- ١٨٦ Sir Jean de Reims.
- ١٨٧ Eudes Giblet.
- ١٨٨ Guillame III, Roger de Beaufort, Vicomte de Turenne.
- ١٨٩ ١٣٢٠، ١١٠٠، ٥٢٥.
- ١٩٠ عام ١٤٨٨ تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح.
- ١٩١ Clement VI.
- ١٩٢ Rhodian.

- ١٩٣ Suter، بطليموس الأول.
- ١٩٤ Antigonus.
- ١٩٥ Sabines.
- ١٩٦ Acacius، توفى ٤٢٥م.
- ١٩٧ Amida، منطقة في تركيا الآن.
- ١٩٨ Arnaud Amarlic، توفى ١٢٢٥م.
- ١٩٩ وصل السلطان إلى «الطرانة»، إحدى قرى مركز كوم حمادة.
- ٢٠٠ Newaya Moryam، قفل عائدا إلى بلاده بعد عامه برحيل حملة القبارصة عن الإسكندرية.
- ٢٠١ Isolda Parewastell of Bridgewater.
- ٢٠٢ Sir Miles de Stapleton.
- ٢٠٣ William II of Normandy.
- ٢٠٤ ٩٥٩م.
- ٢٠٥ Niccolo Giustinian.
- ٢٠٦ Gabriele Adorno.
- ٢٠٧ Cassano Cigalla.
- ٢٠٨ البيت لقيس بن الملوح.
- ٢٠٩ Joanna l' Aleman.
- ٢١٠ John de Montolif.
- ٢١١ Berengaria of Navarre.

- ٢١٢ Lionallo Mormellino.
- ٢١٣ Corsica، جزيرة تتبع فرنسا.
- ٢١٤ John Visconti.
- ٢١٥ Aragon.
- ٢١٦ سكان مقاطعة "كتالونيا" بأسبانيا.
- ٢١٧ Paul de Beclonia, Jean d' Alfonso & George Settica.
- ٢١٨ «ناصر الشريفي» و«سيف الدين الجوباني».
- ٢١٩ خوند طولوبيه.
- ٢٢٠ الأمير «بيتر» أخو الملك «بيير».
- ٢٢١ James Giblet.
- ٢٢٢ Tower of Margarita.
- ٢٢٣ John de Neuville.
- ٢٢٤ Lazaros Church، بُنيت في القرن التاسع الميلادي.
- ٢٢٥ في النصف الأول من القرن التاسع عشر عاشت في قرية «جاتكومبي» التي خرج منها «إدوارد إستير» فتاة اسمها أيضا «لوسي لايتفوت» كانت دائمة التردد على كنيسة القديس «أوليف» St. Olave بهذه القرية حيث يرقد جسد الفارس «إستير». في العاشرة والنصف من يوم ١٣ يونيو لعام ١٨٣٠ كُسفت الشمس لمدة ساعة وضرب الرعد المنطقة. كانت لوسي تقف أمام جسد الفارس «إستير» داخل الكنيسة. بعد توقف العاصفة اختفت الفتاة تماما. لم يُعثر لها على أثر سوى حصانها الذي ربطته في سياج الكنيسة!

- ٢٢٦ ذات يوم نام رسول الله صلى الله وعليه وسلم في بيت عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان ثم استيقظ وهو يضحك فقالت: «ما يضحكك يا رسول الله؟!» قال: «أناس من أمتي عرضوا عليّ غزاة في سبيل الله يركبون البحر مثل الملوك على الأسرة.» قالت: «يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم.» فقال عليه الصلاة والسلام: «أنت من الأولين.» ركبت أم حرام البحر فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت. توفيت أم حرام في عام ٢٨ هجرية واكتشف قبرها في لارناكا عام ١٧٦٠ ميلادية.
- ٢٢٧ Echive de Scandelion.
- ٢٢٨ John de Gaurelle.
- ٢٢٩ John Gorap.
- ٢٣٠ Janus Lusignan.

رقم الايداع / ١٩٥٠٢ ـ ٢٠١٣ ط١

الترقيم الدولى / ٩ - ٤٢ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

مطبعة إبراهيم سالم

01144595757